سلسلة روائية للشباب

حكيم الزمان

حمدى عماره

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان – عابدين – القاهرة
☎ ٣٥٥٤٢٢٩

● رقم الايداع بدار الكتب : ٢٥٩٠ / ١٩٩٩
● الترقيـــــم الـــــدولى : ٧-٠٨٢-٢٨٧-٩٧٧

رسوم الفنان : جابر ناشد

© حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة
لدار الكتب العلمية للنشر والتوزيع - ١٩٩٨
لايجوز نشر جزء من هذا الكتاب أو إعادة طبعه أو اختزان مادتـــه العلمية أو نقله بأى طريقة سواء كانت إلكترونيـــة أو ميكانيكيـــة أو بالتصوير ذلك دون موافقة خطيه من الناشر مقدماً.

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
☎ ٣٥٥٤٢٢٩

الزمان .. أحد العصور السالفة ..

المكان .. بقعة فى أرض الله الواسعة .

والبطل .. أمير فى التاسعة .. ما يلبث أن يعلن عن نفسه .. ويكشف عن شخصه .. والسلطان « نعمان » .. إحدى الشخصيات الأساسية ووالد الأمير البطل .. وكان مختالاً فخوراً .. يمشى فى الأرض مرحا .. ويصعّر خده للناس.. إذ كان يرى بعينىٌ خياله أنه أفضل الملوك وطاووس السلاطين .. ومع ذلك كان راض القلب .. مطمئن النفس .. نقى السريرة .. وقد تميز عصره بالخير والنعيم .. والرخاء العميم .

وقد أحبته شعوب بلاده .. وكانوا يتمنون لو أنه تحلى بالتواضع .. وتخلى عن التكبر والغرور .

وبالرواية شخصيات عديدة .. نتعرف عليها كل فى دوره فى السياق ومن خلال الأحداث .

والسلطان نعمان .. رزقه الله ثلاثة صبيان .. « جمال الدين » .. و « صلاح الدين » .. و« نور الدين » . وكانوا يعيشون فى فرح

وسرور .. وسعـادة وحبـــور .. لكن دوام الحال من المحال .. إذ مرضت السلطانة .. والدة الأمراء الثلاثة .. ولم تطل فترة مرضها لتنتقل من دار الفناء إلى دار البقاء .. وادعـة « نور الدين » وما زال طفلا رضيعاً .. ليخيم الحزن فى أرجاء القصر الكبير .. وليعم بلاد المملكة ، فقد أحبها الكبير والصغير .. وذلك لحنوها وتواضعها وسخاء يدها .. فكانت تطعم الجائع المسكين وتعطى المحروم .. وتكسو العارى وتعطى السائل وتعطف على اليتيم .. وأبداً ما رفضت مسألة .. وما ردت يدا.

اشتغل بال السلطان بفلذة كبده « نور الدين » .. فمن يتولى رعايته ويعنى بتربيته ويقوم على شئونه ؟ . ويكون له صدراً حنوناً بعد أن رحلت عنه أمه ؟ . عين الحب ونبع الدفء . ولم يطل التفكير بالسلطان .. حيث أرسل فى طلب الدادة « مرجانة » .. وكانت امرأة فى متوسط العمر .. قضت حقبة طويلة من عمرها تخدم أسرة السلطان ممعنة فى الوفاء .. وقد أحبها كل من بالقصر لمرحها وخفة ظلها وروحها .. وعذوبة لسانها .

إمتثلت « مرجانة » بين يدى السلطان .. وبعد لقاء قصير .. خرجت حاضنة الأمير ، والبِشر بادياً فى محياها .. فقد خصها

السلطان برعايته .. واختارها لتربيته والقيام على شئونه .. وراحت « مرجانة » تزف بشراها لوحيدتها « فيروز » .. ذات الخمسة أعوام .. لترتسم على ثغرها ابتسامة حلوة .. ولتجرى فى صوتها ضحكة عذبة .. ولتشرق فى القاعة فَرْحة .. أى فرحة ! .. وليزدان قلبيهما بالزهو والبهجة .. أى زهو ! .. وأية بهجة !! ..

باتت « مرجانة » و « نور الدين » مستأثر بلبّها .. مستحوذ على فؤادها .. فاشتغلت بأمره .. ووجدتها فرصة سانحة .. لترد بعض أفضال مولاتها الراحلة .

مضت سنوات قليلة .. كبر الصغير .. فقام يتقافز تسبقه ابتسامته المضيئة .. وضحكاته البريئة .. ويملأ القاعة ظرفاً ولطفاً .. وكان يقضى وجه النهار ووسطه مع « فيروز » يلعبان ويمرحان .. وعين « مرجانة » لا تغفل عنهما تداعبهما ابتسامة لطيفة .. وفى الليل كانت تسامرهما بأقاصيصها الطريفة .. وأناشيدها الجميلة .. وحكاياتها عن الدنيا خارج القصر .. وكانت دهشة الأمير الصغير .. حيث كان فى معتقده .. أن القصر هو العالم بأسره .. وكان يلح على الدادة أن تصحبه إلى خارج القصر .. وكانت (مرجانةُ) بدورها تقول له :

– لا تتعجل يا « نور الدين » .. غداً تخرج من القصر فى مشهد عظيم حيث المركبة الذهبية التى يجرها الخيول .. والموكب السلطانى الكبير ..

وبات الأمير يداعبه حلمه بالخروج إلى ذلك العالم الساحر الذى تحكى عنه الدادة كل حين .

اشتد عود الأمير ليعهد به السلطان إلى معلم القصر ليلقنه مبادىء القراءة والكتابة والحساب .. كما سبق أن قام بتعليم أخويه الأميرين : ، « جمـال الدين » و« صلاح الدين » .. وقد أقبل الأمير على دروسه .. وأبدى استعداده منذ الدروس الأولى .. فلم يرجئ واجباً .. ولم يهمل درساً .. وينفق الساعات فى القراءة والكتابة .. ولذا تقدم تقدما سريعاً وملموساً .

دعا الأمير « فيروزاً » ، لتشاركه القراءة كما كانت تشاركه الألعاب .. فقالت « فيروز » ببساطة :

– أنا لا أعرف القراءة .

وقال الأمير فى دهشته :

– لا تعرفين القراءة ؟ ! إذن فلنكتب .

– ولا أعرف الكتابة أيضاً ..

- ولا الحساب ؟ !

- ولا الحساب .

اشتدت دهشة الأمير .. فكيف « لفيروز » التى تكبره .. ألا تعرف القراءة والكتابة ولا الحساب .. شرد الأمير دقيقة .. ثم لمعت عيناه وهتف :

- .. فكرة ! .. ما رأيك لو تحضرين معى الدروس ؟

ابتسمت « فيروز » فى دهشة وأضافت :

- وأتعلم ما تتعلمه ؟

- أجل ..

صمتت « فيروز » برهة ثم قالت فى رجاء :

- يا ليت ! .

وعندما علمت الدادة باتفاق الصديقين اعترضت دون تفكير .. وجاء ردها على غير رغبة « فيروز » والأمير .. حيث قالت :

- إن الأمراء والأميرات هم الذين يتعلمون ..

- و« فيروز » ؟

- « فيروز » ليست أميرة .

صمت الأمير برهة .. قفزت فى ذهنه فكرة .. انفرجت لها أسارير وجهه .. عرضها على الدادة .. وهى أن يقوم بنفسه بتعليم « فيروز » .. فكرت الدادة ملياً .. ولم تشأ أن تغضبه .. فوافقت شريطة الكتمان .. قبل الأمير وسُرّت « فيروز » .. وأقبل بحماسه على تعليم « فيروز » .. فكان يقرأ وهى تردد بعده .. ثم يكتب وهى تحاكى كتابته .. ثم يدعها لتقرأ وتكتب وحدها .. تقدمت « فيروز » .. وكان الأمير عقب كل درس يعيد عليها ما تعلمه من معلمه .

وتمضى الأيام .. وذات صباح .. اصطحب الأمير صديقته « فيروز » .. وقادها إلى حديقة القصر .. وأخذا يتجولان بين الأشجار الباسقة يتمتعان بأشعة الشمس الدافئة .. ويتنسمان الهواء العطر .. ويشاهدان الورد .. ويتأملان الزهور .. واسترسل الأمير يصف ما يراه وما يحسه .. عندئذ .. شعر بميله إلى الكتابة .. وكأن يداً تجتذبه إليها ! وسرعان ما أحضر كراسةً وقلماً .. وجلس فى ظلال شجرة « السنديان » العتيقة .. وانبرى يسطر بقلمه أول كلمات من إبداعه .. كتب « نور الدين » شعراً !! وصف فيه أجزاء الطبيعة من حوله .. وعبر عن إحساسه بجمالها ورونقها .. وكان يكتب بيتاً أو شطراً .. ويشرد قليلا .. ثم يعود ليكتب غيره

.. وكانت « فيروز » قد شغلت عنه بتأمل ألوان الورد العديدة وأشكال الزهر المتباينة .. واسترسل الأمير فى كتابته حتى أنجز أولى قصائده .. عندئذ افترّ ثغره عن ابتسامة عريضة .. وقام يبحث عن « فيروز » .. وعندما التقى بها هتف قائلا فى فرحة :

- لقد كتبت قصيدة يا « فيروز » .

- قصيدة ! أتقول كتبت قصيدة ؟؟ !

- أجل .

أشرق وجه « فيروز » قائلة :

- اقرأها يا « نور الدين » .. اقرأها .. !

وارتفع صوت الأمير يقرأ قصيدته .. « وفيروز » تتابعه .. وعندما انتهى من قراءته عبّرت « فيروز » فى إعجاب :

- إنها قصيدة جميلةٌ ! ..

- حقاً ؟؟ !!

- حقا ..

- إذن .. هيا لنقرأها لدادة « مرجانة » .

واستبقا إليها .

تشاغل الأمير بقصيدته .. وجعل يقرأها مرة وأخرى وثالثة .. وجد نفسه يدندن ! .. وكانت « فيروز » تتابعه .. ثم سألته متعجبة :

- ماذا تفعل يا « نور الدين » ؟ !

قال الأمير بين ابتسامته :

- إننى أقوم بتلحينها .. و .. وبعدئذ أغنيها .. بل .. بل نغنيها معاً .. ما رأيك يا « فيروز » ؟

صاحت « فيروز » :

- هائل يا « نور الدين » .. هائل !!

واصل « نور الدين » دندنته ، و« فيروز » تتأمله وقد تراءى فى طرْفها تعبير الإعجاب .. وأتم الأمير التلحين .. وانبرى يغنى لأول مرة .. وأومأ « لفيروز » أن تردد من بعده .. وأخذا يتدربان فى حماس ونشوة حتى أتقنا غناءها .. وأنفق الأمير ليلته يغنى مع فيروز باكورة أغنياته .. بين إعجاب الدادة وتشجيعها .

هوى الأمير حديقة القصر .. كما هوى شجرة « السنديان » الضخمة .. تلك التى شهدت مولد أولى قصائده .. وبدت له الحديقة مصدر إلهامه وإبداعه .. لذا كان يتردد عليها مرتين كل يوم .. عندما تطل الشمس من ناحية الشرق وحين تجنح إلى الغروب .. بمفرده أو برفقة « فيروز » .. وفى ظلال السنديانه يحول أحاسيسه شعراً ، يلحنه ويغنيه مع صديقته على مسمع الدادة التى كانت تبدى إعجابها وتحثه على الاستمرار .

وكان الأمير يقضى نهاره بين تعلمه الدروس .. وكتابته الأغانى والقصائد .. وفى الليل يتسامر بالغناء .. أو يصغى لحكايات الدادة الشيقة وأحاديثها العذبة .. فى ذات الوقت كان أخواه مشغولين برحلات الصيد برفقة والدهما السلطان .. وبمصاحبة الحرس الذين يقومون على الخدمة والحماية مما قد يعترضهم من الأخطار .

(٢)

صبيحة يوم .. صحا السلطان من نومه منزعجاً .. فقد استيقظ قبل ميعاده . وبينما كان يتثاءب ويتأوه .. أتت إلى سمعه أصوات عصافير .. أنصت إليها برهة ثم هتف بين دهشته :

وارتفع صوت الأمير يقرأ قصيدته وفيروز تتابعه

- عصافير بلدية !! . عصافير الفلاحين فى قصر السلطان !!

واستطرد :

- السلطان « نعمان » .. طاووس الملوك والسلاطين .. يصحو على أصوات عصافير الغيطان ! . فظيع .. فظيع .. !!

وعلا صوته قليلا :

- لابد أنها مؤامرة دبرها الفلاحون الملاعين .. أو .. أو تكون من تدبير العصافير ؟ !

زعق السلطان على الحراس .. سمعوا زعيقه .. فانطلقوا من كل صوب .. توقفوا أمام رئيسهم - الذى تقدمهم - مهرولين جميعاً حيث مخدع السلطان .. وقفوا على بُعد شاخصين أبصارهم تجاه السلطان الذى صاح عاليا :

- عصافير الفلاحين فى قصر السلطان !! يا للمهزلة ! .

تبادل الحراس نظرات الاستغراب ..

واستطرد السلطان فى صياحه :

- كيف تجرؤ تلك العصافير اللعينة على اقتحام قصرى ؟ .. كيف ؟؟

خطا ناحيتهم فسرت الرعدة فى قلوبهم .. جعل يتأمل وجوههم قائلا :

- من الذى دبر هذه المؤامرة الفظيعة ؟

لم يتفوه أحد الحراس بكلمة واحدة .. فعاد السلطان ينهرهم آمراً :

- اطردوا العصافير عليها اللعنة .. وعليكم أجمعين .

أخيرا خرج صوت رئيس الحرس مرتعشا :

- سمعا وطاعة يا مولاى ..

انطلق الحراس .. وما لبث أن علا صوت رئيسهم يأمرهم بإحضار زعافات طويلة .. تفرق الحراس سراعا ولم تمض لحظات ليعودوا حاملين الزعافات .. ودبت أقدامهم قاصدين حديقة القصر .. وقفوا حيث وقف الرئيس .. الذى رفع هامته ونفخ صدره وأشار لهم قائلا :

- هيا ..

وهبوا يضربون الأشجار بزعافاتهم بين صيحات الرئيس :

- بشدة أيها الواهنون .. بقوة أيها الكسالى .

وفى الليل كان الأمير يتسامر بالغناء

كان « نور الدين » جالسا تحت « السنديانه » يعالج إحدى قصائده .. فوجىء بالضربات العنيفة وأصوات العصافير المنزعجة .. انقطع حبل أفكاره .. التفت نحوهم ذاهلا .. انتصب واقفا .. أسرع إليهم بين صياحه :

- كفوا أيها الحراس .. كفوا !!

صدع الحراس لأمر الأمير .. وكفوا عن ضرب الأشجار .. دنا منهم وسأل فى دهشة :

- ماذا تصنعون ؟ !

رد رئيسهم :

- إننا نطرد العصافير بأمر مولاى السلطان .

ذهل الأمير .. وردد فى استغراب :

- تطردون العصافير !! لِمَ ؟ !

- لقد . لقد أزعجت مولانا السلطان .. فأمر بطردها ..

- أزعجت مولانا السلطان ! .. كيف ؟ ! ..

إشتد ذهول الأمير .. بينما ردد فى لوعة وكأنما يقول لنفسه :

- إنها لطيفة .. وأصواتها رقيقة !!

وكانت العصافير قد فرّت من حديقة القصر هاربة .. ولفّ الصمت أرجاء القصر .. عندئذ استأذن الحراس فى الانصراف فأذن لهم الأمير بين شروده ..

غادر الأمير الحديقة .. حكى « لفيروز » .. وحكى للدادة .. علّقت الدادة فى حزم :

- أوامر السلطان يجب أن تطاع دون تبرير أو تفسير .

ما الذى تقوله الدادة ؟ !! .. تحيّر الأمير .. انسحب فى صمت .. جلس وحده يفكر .

ودّع السلطان مخدعه .. خطا فى خيلاء .. ابتسم حين أتت إلى سمعه أصوات « عصافير الكنارى » .. اقترب من أقفاصها المعلقة فى السقف .. امتدت يده تدفع الأقفاص واحدا بعد الآخر .. والأقفاص تذهب وتجىء كبندول الساعة . العصافير تتخبط فى ذعر .. والسلطان يضحك .. صراخ العصافير يطغى على ضحكاته .. اشتد صراخ العصافير .. وعلت ضحكات السلطان !! .. فى تلك اللحظة .. دخل الأمير .. دنا من والده السلطان .. وقف يتأمله .. السلطان يتمايل من أثر الضحك .. العصافير يصطك بعضها البعض .. يشتد صراخها .. اتسعت عينا الأمير من فرط الدهشة .. تنبه السلطان لوجود الأمير . هش له وبش .. دفعه إلى صدره .. عانقه وطبع قبلة حنونةً على خده ..

- لعلك سعدت بالنزهة فى حديقة القصر ؟

لم يجب « نور الدين » .. دهش السلطان حين لمح الحزن يكسو وجهه .. سأله السلطان عن السبب .. فاجأه بقوله :

- إنه مولاى السلطان ..

تعجب السلطان قائلا :

- مستحيل .. إلا أن أكون قد وعدتك بشىء .. و ..

- لقد أصدرتم أوامركم بطرد العصافير من حديقة القصر ..

فكر السلطان لحظة .. ثم عاد يقهقه :

- عصافير الفلاحين !! .. عصافير الحقول الكئيبة .. إنها مزعجة للغاية ..

- إن أصواتها عذبة .. !

واستمر السلطان يقهقه ..

- بل إنها أوهام عقلك الصغير .. غداً تغير رأيك .. دع عنك الخيالات .. وتأمل « عصافير الكنارى » واستمتع برؤيتها .. وتسلى بحركاتها وأنصت إلى غنائها ..

- لكنها لا تغنى .. !

ولم يرد السلطان .. فقد شغل بدفع الأقفاص بين ضحكاته المجلجلة .. انسحب الأمير تاركا المكان .. عاد يجول فى حديقة القصر .. بينما فكره مشغول بأمر عصافير الكنارى .. ويسأل نفسه :

- هل كانت العصافير تغنى ؟

ابتعد عن الحديقة .. ما زال المشهد مرتسما فى مخيلته .. والصراخ يتردد فى سمعه طاغيا على كل الأصوات .. ساقته قدماه حيث صومعة الحكيم .. القابعة فى أحد الأركان .. تأملها . المبنى ليس هائلا أو فخما ومع ذلك يحوطه الجلال ! .. لم يسبق أن وطأته قدماه .. ولم ير الحكيم إلا طيفاً .. خطر بباله دخول الصومعة وزيارة الحكيم .. قَلَبَ الفكرة فى ذهنه .. راقته .. واصل سيره إلى هناك .. دلف من باب الصومعة المفتوح .. الصمت يطويها .. خطا فى ردهة متوسطة الاتساع . انتهت بحجرة كبيرة . لمح كتبا متراصة فوق رفوف مستطيلة .. يا إلهى ! . ما كل هذه الكتب ؟ ! .. وقف على باب الحجرة على استحياء .. الحكيم أمام مكتبه منهمكا فى القراءة .. المكتبة مكدسة بالكتب والمجلدات الضخمة .. بادر الأمير بالتحية :

- السلام عليكم ..

وقف على باب العجوز على استحياء

رفع الحكيم عينيه .. ابتسم حين رأى الأمير .. ورد التحية :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. تفضل يا سمو الأمير ..

ثم قام وصافحه مرحّبا .. دعاه للجلوس فجلس الأمير .. جعل يتلفت فى أنحاء الحجرة المتواضعة ، الأثاث بسيط لكنه منمق .. قرأ الآيات القرآنية المعلقة على الجدران .. عاد يتأمل الحكيم .. ملبسه البسيط الوقور .. ابتسامته الوديعة .. ملامحه الطيبة السمحة .. اتسعت ابتسامة الحكيم .. ثم قال :

- أظن أن مجيئك صدفة .. ورُبّ صدفةٍ خير من ألف ميعاد ..

هزّ الأمير رأسه دليل الإيجاب .. ثم تشجع وقال :

- لقد خلق الله الأشجار .. أليس كذلك ؟

- سبحانه وتعالى جلّ شأنه .. حقا يا سمو الأمير ..

- وخلق العصافير ؟

- وكل الطيور والدواب .. والبشر .. والكون أجمعين .

- فالأشجار والعصافير ملك خالقها ..

- جلّت قدرته .. إنه يقين ..

- وليست ملكاً لأى إنسان ..

- حقاً حقا ..

- سواء أكان خادماً أو سلطان ؟

- كل الحق يا سمو الأمير ! .

حكى الأمير حكايته .. بينما كان الحكيم ينصت إليه ويتأمله .. بريق عينيه .. حواره .. فكره .. وتعبيره .. وفى نهاية الحديث .. تنفس الحكيم فى راحة وقال فى هدوء :

- الزمن دوّار يـ سمو الأمير .. غداً يصحو النائم .. ويفيق الحالم .. ويرى الدنيا بعيون البشر ..

ويسكت الحكيم .. ليرى أثر كلماته على وجه الأمير الحائر .. فاستطرد موضحاً :

- غداً يفرّق السلطان بين الغناء والبكاء .. وبين الأفراح والأتراح .. الصبر طيب يا سمو الأمير .. وإن غداً لناظره قريب .

كلام عاقل وحديث جذاب ساحر ! .. ابتسم الأمير فى تفاؤل .. طالت نظرته إلى الحكيم .. وكانت عيناه تحمل معنى الامتنان .. استأذن الحكيم ضيفه ليعد حقيبة سفره .. هتف الأمير فى لهفة :

- أمسافر يا سيدى ؟

- بمشيئة الرحمن .

- إلى أين .. خبّرنى ؟

- سياحة فى دنيا الله .. سأطوف بلاد المملكة .. لأطمئن على الأحوال .. وأقف على الأخبار .

- يا لها من رحلة ! .. ليتنى أصاحبك فى مستقبل الأيام ؟

و .. ومتى تعود ؟

- الرحلة ممتدة .. والله وحده يعلم وقت العودة .. إنه علاّم الغيوب .

- سأنتظرك فى شوق ..

- وسأكون أشد شوقا للقائك ..

تبادلا ابتسامة .. ربت الحكيم على كتف الأمير .. وتوادعا فى حرارة .. خطا الأمير إلى خارج الحجرة بينما شيعته نظرة الحكيم المعجبة .. الآملة .. وردد فى همس :

- لعله هو .. بل إنه هو .. أخيراً وجدته .. لكم طال بحثى عنه ! ..

شخصَ ناحية السماء وفى عينيه دموع الفرح .. ولسانه يلهج بالحمد ..

(٣)

حمل الحكيم حقيبته .. وودع القصر حيث رحلته الشاقة .. الطويلة .. وكان الأمير قد هدأ باله واطمأن خاطره بعد تلك الزيارة .. يا لها من زيارة ويالها من صدفة !! وكان قلبه قد تعلق بالحكيم وعندما خلا إلى نفسه جعل يتـــذكر حـــواره .. عباراته وإيحاءاته .. ولحظات صمته .. هاجمه صراخ « عصافير الكنارى » قام من فوره يصطحب « فيروز » .. قادها حيث أقفاصها .. دنا منها وكانت تملأ المكان صياحا .. قال فى لوعة :

- ما أجمل عصافير « الكنارى » !!

أضافت « فيروز » :

- وما أجمل ألوانها !!

جعل يتأملها وهى تلف داخل الأقفاص حائرة .. أوتقف على قضبانها وتقبض عليها بأصابعها وأظافرها .. وتطل من بينها .. كأنها تنظر إليه ! .. سقطت الكلمات من فمه :

- إنها حزينة ..

- حزينة !! ... كيف تكون حزينة وهى تأكل وتشرب .. ؟ !

- لا يكفى الأكل و لشراب .. إنها محرومة من اللعب .

- محرومة من اللعب ؟ !

- بلى .. فهى لا تحطّ على الأشجار .. ولا تتقافز فوق الأغصان .. ولا تطير عبر الفضاء .. ولا فى أى مكان ..

- لكنها مجرد عصافير للزينة .. انظر إلى ألوانها الزاهية .. الجميلة .. !

فكر لحظة ثم قال فى حيرة :

- إنها تبكى .. !!

- بل تغنى ..

- إنها تصرخ .. !!

- بل تغرد ..

- كيف وهى لا ترفرف بأجنحتها .. والأقفاص ضيقة .. خانقة .. !

ثم قال فى انفعال :

- لندع هذا المكان .. هيا يا « فيروز » .. هيا ..

بات الأمير .. يفكر فى أمر العصافير .. غلبه النعاس .. سمع عصافير « الكنارى » تنادى عليه :

- « نور الدين » .. « نور الدين » ..

كل عصافير « الكنارى » تهتف باسمه .. ما زالت تنادى بأصوات حادة .. صراخها يصم أذنيه .. وها هى تطل من خلال القضبان .. دموعها تقطر من عينيها .. بكى « نور الدين » .. اشتد بكاؤه .. شىء خشن فى حلقه .. يضغط على عنقه .. يكاد أن يخنقه .. ويصحو « نور الدين » يلهث .. أنفاسه تتلاحق كأنما كان يعدو .. تلفت من حوله .. يتذكر رؤياه .. يستعرض حلمه.. يطويه الكرى .. يرى نفس الحلم !! ويتراءى له نفس المشهد .. صحا فى الصباح المبكر .. التقى « بفيروز » .. فى قلبه حرقة .. وفى عينيه إصرار.. تبعته .. وقف بالقرب من أقفاص « الكنارى » العالية .. مد يده .. شب على أطراف أصابعه .. يده ما زالت بعيدة ! .. نظر حوله .. رأى مقعداً.. طلب من « فيروز » أن تساعده فى حمله .. حملاه إلى أسفل الأقفاص .. سألته «فيروز» فى دهشة :

- لمَ ؟ !!

- سترين بعينيك ..

علا الأمير المقعد .. « وفيروز » ترقبه فى استغراب .. مدّ يده إلى أحد الأقفاص .. فتح بابه . فانطلقت العصافير إلى الخارج كالسهام .. فتح باب القفص الثانى .. والثالث .. وكل الأقفاص .. انطلقت العصافير تباعا متهللة وكأنها غير مصدقة ! .. بدت الأقفاص خاوية .. تهلل وجه الأمير .. أضاءته ابتسامة .. فيروز فاغرة فاها مذهولة ! . تنفس الأمير فى راحة :

- لن تبكى عصافير « الكنارى » بعد اليوم .. لن تصرخ .. بل ستغرد بأحلى الألحان .. وأعذب الأنغام .. هيا « يا فيروز » لنستمتع برؤيتها فى حديقة القصر ..

وانطلق الأمير وتبعته فيروز والقلق يساورها ..

علمت الدادة .. فالأمير يحكى لها كل صغيرة وكبيرة ولا يخفى عنها شيئاً .. أصابها الفزع .. نهرت « فيروز » ولامتها .. فقد ساعدت الأمير وشجعته ليطيّر العصافير .. تدخّل الأمير ليدافع عن صديقته ويعترف بمسئوليته مؤكداً براءة « فيروز » .. ثم عبّر عن ارتياحه لما فعل .. فقد ألحّ عليه ضميره.. واستنجدت به العصافير .. وأنه قام بواجبه نحوها فأطلق سراحها .. وعاد يقول فى سعادة :

- فى الجو تنطلق العصافير .. تعبر عن سعادتها .. فنراها سابحة فى الفضاء الفسيح أشد جمالا وروعة !

لم تعلق الدادة .. ولكنها نظرت نحو السقف وتمتمت فى خوف :

- أستر يارب ..

الصديقان يجولان فى حديقة القصر .. عيناهما على أغصان الأشجار .. الأمير سعيد برؤية عصافير « الكنارى » تلهو وتتقافز وتداعب بعضها بعضا .. مغتبطة بحريتها .. الفرحة على وجه الأمير تزينه .. « وفيروز » سعيدة لسعادته .. ولم يلبث أن جلس الأمير تحت « السنديانه » .. وحيث يزوره إلهامه .. ليسطر أحلى أغانيه .. معبّرا عن فرحته التى استمدها من فرحة العصافير المنطلقة .. وحلمه الذى حققه بيده .. وفى أنشودته دعا العصافير لأن تملأ الدنيا شدواً .. وأن تعانق أجزاء الطبيعة الساحرة .. وفى بيته الأخير عبّر عن الأجنحة .. فلولاها ما طارت الطيور .. وما سمّيناها طيوراً .

يخرج السلطان من جناحه متقدما وزيره « فواز » .. كان منظرهما يبعث على الابتسام .. فالسلطان ضخم الجسد .. فارع الطول .. عريض الجبهة .. وتشع من وجهه الطيبة والبشاشة وفى

عينيه صفاء .. مائل العنق .. منتفخ الصدر عن قصد ! .. أنفه شامخ فى غرور وخيلاء .. والوزير على النقيض .. صغير الحجم والأعضاء .. قصير القامه .. والخبث يعشش فى وجهه وعلى فمه ابتسامة مصطنعة .. ومع قصره فهو مطأطىء الرأس .. وعيناه تومضان بالمكر والدهاء .. يراهما أحد الحراس فينزوى مذعورا .. !

يواصلان سيرهما نحو أقفاص العصافير .. لم يسمع السلطان أصواتها .. استغرب .. اقترب منها . تأمل الأقفاص .. فطاش صوابه وهتف فى ذهول :

- أين ذهبت العصافير ؟ !!

شاركه الوزير دهشته .. زعق السلطان :

- يا حراس ..

هرول إليه رئيس الحرس .. وقبل أن يقدم فروض الولاء والطاعة .. أمره السلطان فى لهجة قاسية أن يجمع الحراس والوصيفات وكل الخدم .. دار رئيس الحرس على عقبيه .. ترنّح .. تماسك قبل أن يقع على الأرض .. ترك السلطان فى هياجه ينقل بصره بين الأقفاص مشدوها مأخوذا ! ..

دبّ قلب الدادة بعنف حين اصطك بسمعها أمر السلطان .. اهتزت ساقاها .. صحبت ابنتها حيث السلطان لم تمض لحظات ليصطف الحرس والوصيفات والخدم فى نصف دائرة كما أمرهم رئيس الحرس .. شمل الوجوم المكان .. والمصطفون كأن على رءوسهم الطير من فرط الرعب .. الهلع باد على الوجوه وخاصة الدادة وابنتها .. تقدم السلطان فى خطوات متئدة .. جعل يتفحص وجوههم واحدا تلو الآخر .. يشتد فزعهم ويستقر فى قلوبهم ويبدو فى ارتعاش أطرافهم .. وجلجل صوت السلطان :

- من المخبول الذى فتح أبواب الأقفاص وطيّر العصافير ؟ !

لم يجب أحدهم .. يشتد غيظ السلطان ويهدد :

- الفاعل يعترف وإلاّ أمرت بطردكم كعصافير الغيطان .

دخل الأمير .. اشتد هلع الدادة و« فيروز » .. خطا فى إقدام قاصدا السلطان .. أصبح فى مواجهته .. استأذن ثم قال :

- مولاى .. إننى أعرف الفاعل ..

دهش السلطان :

من هو يا سمو الأمير ؟ !

فقال « نور الدين » فى شجاعة :

- لا أحد من هؤلاء جميعاً .

- من هو إذن ؟ .. من الأحمق الذى فتح الأقفاص ؟

- أنا يا مولاى .. أنا الذى فتحت الأقفاص وطيّرت العصافير .

- أنت ؟ !!!

دهش الوزير .. واحمرّ وجه السلطان .. التفت نحو المصطفين .. وصاح فيهم قائلا :

- اغربوا عن وجهى ..

انسحب الجميع فى هدوء .. خلا السلطان ووزيره بالأمير الصغير .. وجعلا يحاورانه ويداورانه .. والأمير صلبٌ ثابت الجأش .. يعبر عن رأيه دون تهددٌ .. ويدافع عن وجهة نظره دون تهيب .. تعجب الوزير لموقف الأمير الشجاع .. آرائه التى تدل على فصاحته .. وتُبين رجاحة عقله .. ليقول فى نفسه :

- خطر قادم .. إن هذا الصغير يهددنى بعقله الكبير .. بل سيكون مصدر خطورة على مصالحى فى مستقبل أيامى .

(٤)

شرد الوزير مع أفكاره .. بينما مضى السلطان فى انتقاد آراء الأمير وأفكاره ولومه على تصرفه دون أمره أو مشاورته .. والأمير يردد طرفه الحائر.. ولا يملك إلاّ أن يعتذر للسلطان .. الذى يصفح عنه .. ويعانقه فى حب وحنان جارفين ! .

فى تلك الليلة .. لم يستطع الأمير أن يكتب كلمة واحدة فى كراسة أشعاره رغم محاولاته .. وكان يتذكر كلمات السلطان :

- عصافير « الكنارى » الزاهية الألوان .. خاصة بعائلة السلطان . أما الخدم والحرس وكل الشعب فتناسبهم العصافير البلدية .. الكالحة الألوان .. وكم حاولت الدادة أن تشد الأمير إلى حكاياتها .. لكنه كان شارد الذهن .. مشتت الفكر .

والوزير فى بيته الكبير .. يلف ويدور كالملسوع .. يفكر فى الأمير .. إنه مفاجأة لم يكن يتوقعها ! .. ولم يحسب لها حسابا .. ويمضى فى حديثه لنفسه :

- من أين جاء بأفكاره العميقة .. وآرائه الواعية ؟! .. لقد تربى فى أحضان الدادة وبين الخدم .. وكلهم سفهاء جاهلون .. ! .. أيكون المعلم ؟ .. ولكنه نفس المعلم الذى علّم أخويه .. من علّمه

إذن ؟ .. من غذّى عقله وأناره ؟ .. من بثّ فى صدره الشهامة والشجاعة ؟ .. أتكون طبيعته .. ؟ !! لو أنها طبيعته فتكون الطامة الكبرى .. تأوهّ الوزير .. وأيا كان المصدر فلابد أن يتحفّظ معه ويحتاط له .. ويحترس منه .. ويأتمر عليه .. مستعيناً برئيس الحرس .. شريكه فى تدبير المؤامرات ضد السلطان ! .

فى اليوم التالى .. طلب الأمير من «فيروز » أن تكتب وتردد هذه العبارات :

- العصافير تبغض الأقفاص .. وتحب الانطلاق فى الفضاء الرحيب .

- كل العصافير تنام مبكراً وتصحو مبكرا .. لتلتقط الحَب وتشرب .. وتمرح.. وتتقافز على الأغصان .. وتحط فى البساتين والغيطان .. وتنشد بأعذب الألحان .

كانت عينا رئيس الحرس على الأمير الصغير .. تراقبانه فى كل مكان .. وترصدانه فى كل زمان.. وكل يوم يكتب تقريرا ويسلمه لسيده الوزير « فواز ».

وفى أصيل أحد الأيام بينما كان السلطان جالسا فى الرواق السلطانى .. ومن حوله الوصيفات يلوّحن عليه بمراوحهن الطويلات .. يأتى أحد الحراس ويعلن عن قدوم حكيم الزمان ..

يدخل الحكيم .. ينحنى انحناءة خفيفة .. وبإشارة من السلطان تنصرف الوصيفات .. ثم ينفخ السلطان صدره .. ويرفع هامته .. ويسأل حكيم الزمان :

- هيه .. خبرنى عن أحوال الرعية ؟ ..

- أحوال الناس عال العال .. والرزاق قادر متعال .. وبصالح الأعمال ، يبلغ المرء المنال .

يصمت الحكيم لحظات ثم يستطرد :

- ومن الأرض الطيبة .. يجنى الناس الخيرات والثمار .. والحياة تمضى فى كل بيت ودار .. لكن .

- لكن ماذا ؟

- فى عيون الناس كلام ..

- وضح يا حكيم الزمان ؟ !!

- غدا ..

فرغ صبر السلطان فردد فى غيظ :

- غدا ؟ !

- غدا كل شىء يتبدل .. فالدنيا كل يوم تتغير .. وما بين غمضة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال .. ومن يعش يرَ

الكثير .. وبالترحال نعرف الكثير والكثير . لم يفهم السلطان أحاجى الحكيم وألغازه ، فهتف فى ضيق:

- فسّر يا حكيم ..

- كلامى واضح وضوح شمس الكون .. وعند الله لا فرق بين لون ولون .. الفرق فى الأعمال .. لا ينفع جاه ولا مال .. والعبد فى التفكير .. والرب فى التدبير .

كظم السلطان غيظه .. وتظاهر بأنه فهم كلام الحكيم .. ثم أشار له بالانصراف .. وانصرف الحكيم .. وانبرى السلطان فى حديثه لنفسه :

- ماذا يقصد الحكيم اللئيم ؟ .. دائما يكلمنى بالألغاز .. ويحكى لى بالفوازير .. ويعقد الأمور ..

ينادى السلطان على الوزير « فواز » .. ويدخل الوزير مهرولا .. ويقف بين يدى السلطان .. ينحنى انحناءات كبيرة بين تهليله :

- هلت الأنوار .. واهتزت الأوتار .. السمع والطاعة لولىّ النعم .. وفخر الأمم .. أكرم الأكرمين .. وسلطان السلاطين ..

ويقهقه السلطان لمديح الوزير « فواز » .. ويبالغ فى رفع صدره وهامته قائلا فى عزّة :

- الشكر الكثير .. لعزيزى الوزير ..

ويسايره الوزير فى ضحكاته .. ويتساءل السلطان :

- احك لى يا وزير عن أحوال الشعب والرعية ..

ويندفع الوزير :

- كل الشعب فى أفراح وليال ملاح .. حتى الحيوانات ترقص فى سعادة .. والطيور فى الفضاء تغنى هيمانة .. والفضل كل الفضل لمولانا السلطان «نعمان» ..

- وماذا يقولون عن السلطان ؟

- ليل نهار يرفعون أكفهم .. ويتضرعون لرب الكون .. أن يمنح مولاى الرشيد .. الصحة والعافية .. والعمر المديد .

- بالطبع .. ألا يعيشون فى مملكتى ؟ ! : ويرزقون من خيرات أرضى ؟ ! وزيرى العزيز .. إنك أوفى الأوفياء .. ولذا فإنى أفكر فى مكافأتك .

- نعم الفكرة .. وعين العقل يا مولاى .

ويغرق السلطان فى ضحك متصل ثم يضيف :

- مكافأة كبيرة .. وأموال كثيرة .. !

الشكر الكثير لعزيزي الوزير

تلمع عينا الوزير بالفرحة .. بينما يغبط نفسه ولسان حاله يقول :

- يا لأفكارك .. ويا لذكائك يا « فواز » !

(٥)

علم الأمير بعودة حكيم الزمان فرقص قلبه من فرط السعادة .. وعلى الفور قصد صومعته .. واستقبله الحكيم استقبال الأصدقاء .. وكل عبّر عن شوقه لصديقه بعد غيبة الحكيم التى طالت .. وكان الحكيم مشغولا بتنظيم كتبه فقال الأمير :

- أرى كتبا جديدة !

تأمله الحكيم فى إعجاب ثم قال :

- لفتة تدل على سرعة البديهة .. إنها بالفعل كتب جديدة ..

وأدار الأمير طرفه فى أنحاء المكتبة ..

- كل هذه الكتب ! .. هل قرأتها جميعا يا سيدى ؟

- قرأت منها الكثير ..

- والمراجع ؟

- المراجع تفيد فى البحث والدراسة .. والوصول إلى لب الحقيقة .. فليست العبرة فى كثرة القراءة .. ولكن فى القَدْر الذى فهمته .. ووعيته .. وحصّلته .

- الكتب مفيدة إذن ؟

- فوائدها جمّة لا حصر لها .. منها نتعلم .. والعلم نور يضيىء عقولنا ويفتح أذهاننا .. ويوسع مداركنا .. وينير بصائرنا .. وبالعلم يتطور الإنسان .

- كل هذا ؟ !

- وأكثر يا سمو الأمير .. الكتاب صديق مخلص ومفيد .. يطلعك على التراث الإنسانى التليد .. ويعرفك الجديد .. ويفسر لك ماضى الإنسان .. وينبئك بتاريخ الحيوان ..

- زدنى .. زدنى يا سيدى حكيم الزمان ..

- الكتاب عالم بين يديك .. مخترع يهديك اختراعاته .. فلكى يصعد بك إلى الكواكب والأجرام .. رحالة مغامر يحكى لك المغامرات والاكتشافات .. روائى يسليك بالحكايات .. بحار يسافر بك إلى الموانى ويطوف بك فى سائر البلاد .. حكيم يهديك طريق الهدى والرشاد .

كان الأمير يتابع الحكيم فى شوق بينما يستأنف الحكيم :

- الكتاب بطل يحكى لك قصص الكفاح وملاحم البطولات .. فنان يغوص بك فى أعماقه ويكشف لك عن مشاعره واحساسه .. ويمتعك بفنه ..

- يالعظمة الكتاب ؟ !!

- إن ما قلته عن الكتاب قطرة فى بحر ممتد الأطراف .. لانهاية له ولا قرار.. والإنسان العظيم من يتعلم .. ويعلّم غيره ..

- أى إنسان ؟

هز الحكيم رأسه دليل الإيجاب ..

- حتى الخدم ؟

- الخدم والحشم .. وكل الورى .. كلنا عباد الله .. ولتسمع هذه الحكاية .. هتف الأمير فى نشوة :

- حكاية !!

- إنها حكايتى ..

- لا بد أنها حكاية رائعة ! .. تفضل يا سيدى .. وإنى منصت إليك .. وكلى آذان صاغية .. وانبرى الحكيم فى حكايته :

- زمان .. منذ ستين عاما .. كنت فى مثل سنك .. وكان أبى حطابا فقيرا.. وكنت أساعده فى عمله .. فنصحو مبكراً .. نصلى الصبح قبل شروق الشمس .. ثم أصاحبه إلى الحدائق والبساتين .. فنجمع حطبها .. بعد استئذان أصحابها .. ثم نحزمها ونبيعها

فى السوق بقروش معدودات .. وبثمنها نصيب قوت يومنا .. وكنت أرى أقرانى ومن هم فى سنى .. يسعون إلى الكتّاب لتلقى مبادىء العلم .. وكان لى صديق من أولئك التلاميذ .. وكنت أراه يفتح الكتاب ويقرأ .. أو يفتح كراسه ويكتب .. وأنا لا أعرف هذا أو ذاك .. ومرة طلبت منه أن يعلمنى القراءة والكتابة .. لم يبخل بتعليمى .. بل سرّه طلبى .. وبدأ يعلمنى .. فكنا نلتقى كل يوم نقرأ ونكتب ساعة .. يوما بعد يوم عرفت القراءة والكتابة .. وكانت خطوة هامة فى حياتى .. وبعدئذ تعرفت على بائع كتب قديمة .. فاتفقت على أن أستعير منه كل فترة كتابا لأقرأه .. مقابل أن أنجز له حساباته .. وظللت شهورا وسنين .. قرأت الكثير .. وتعلمت بقدر ما قرأت .. تعلمت علوماً كثيرة .. بدأت أعلّم أقرانى من أبناء الفقراء .. اشتهرت فى القرية ولقّبونى بالمعلم .. بلغت شهرتى القرى المجاورة .. كما كانوا يدعوننى فى المجتمعات لأفيدهم بالرأى وأعاونهم فى حل مشاكلهم .. وأبيّن لهم ما قد يخفى عليهم من أمور الدين والدنيا .. وسرى خبرى فى كل المدن .. بل ذاع صيتى فى الدولة كلها .. حتى وصل مولاى السلطان « نعمان » .. فاختارنى حكيم القصر .. ولقبنى بحكيم الزمان .

- يا لها من حكاية ! .. وفيم كنت تضيع وقت فراغك ؟

- كيف أضيع الوقت ! .. الوقت من ذهب .. لم أضيّع ساعة .. ولا حتى دقيقة ..

دنا منه الأمير فى تبجيل واحترام .. شرد لحظات .. راودته فكرة .. برقت عيناه .. كاد أن يتفوه .. لكن الحرج عقد لسانه .. سكت .. إلاّ أن الحكيم قرأ أفكاره .. وأدرك طلبه .. فقال :

- الكتب لمن يرغب فى قراءتها .. والمكتبة لكل طالب علم وثقافة .. وما عليك إلاّ أن تشرفنا بزيارتك .. وتختار ما يناسبك .. وخير البر عاجله ..

وقف الحكيم .. وقام الأمير على استحياء .. وجعل يتعرف على محتويات المكتبة .. واختار كتابا بمعرفة الحكيم .. وافترق الصديقان على أمل اللقاء القريب .

بلغ الوزير خبر زيارة الأمير لصومعة الحكيم .. والكتاب الذى كان يحمله .. دب قلبه .. واشتد ضيقه ..

- حكيم الزمان .. والكتاب .. خطران هائلان !

(٦)

عكف الوزير يدبر أمره لمواجهة الخطرين المحدقين به .. طلب من رئيس الحرس إحكام الرقابة .. لعل أن تصادفه فرصة فلا يدعها تفلت من يده .

ولا يمضى يومان ليبلغه رئيس الحرس بخبر ثمين .. تهلل الوزير فقد أتيحت الفرصة بلا تعب أو عناء .. وكل ما عليه أن يعجِّل بانتهازها .. وسرعان ما يتوجه الوزير إلى قصر السلطان .. ويطلب مقابلته دون تأجيل .. فالأمر جد خطير .. ويدخل الوزير « فواز » رواق السلطان .. وقبل أن يقدِّم مراسم اللقاء بادره السلطان بالسؤال :

– ما وراءك يا وزير ؟

سكت الوزير عن قصد .. فردد السلطان :

– تكلم يا « فواز » ..

– لا أعرف ماذا أقول ؟ وكيف ؟

– بأى طريقة .. ماذا جرى يا وزير ؟

– مصيبة .. كارثة يا مولاى ..

– مصيبة ! .. كارثة ! .. أين ؟؟

- فى القصر يا مولاى ..

- فى القصر .. لمن يا وزير .. لمن ؟؟

- لـ .. لمولاى السلطان ..

فتش السلطان نفسه .. وتلفت حوله ..

- ماذا تقول ؟ !

- كارثة حلّت بمولاى السلطان .. بل أصابت جدوده .. وستلحق بأحفاده .. وشجرة الأسرة السلطانية أصولا وفروعا .. و ..

- تكلم يا وزير ..

يتعمد الوزير السكوت ثانية .. ثم يهتف مفاجئا السلطان :

- سمو الأمير « نور الدين » ..

- « نور الدين » .. ماذا حدث له .. ماذا أصابه ؟ .. تكلم ياوزير .. تكلم ..

- ما كنت أود أن أغضب مولاى .. ولكنى لم أحتمل .. فإخلاصى ووفائى وولائى لمولاى السلطان .. يجبروننى على الكلام مهما كان .. تصورّ .. تصوّر يا مولاى .. أن .. أن سمو الأمير .. يلقّن « فيروز » العلم .. ؟

ابتلع السلطان لعابه .. والتقط أنفاسه ..

- من « فيروز » هذا ؟

- إنها بنت يا مولاى ! .. « فيروز » ابنة الدادة « مرجانة » ..

عقد السلطان ما بين حاجبيه .. نفخ صدره ورفع هامته ..

- ابنى أنا .. أنا السلطان « نعمان » .. يعلم ابنة الدادة « مرجانة » .. !

- والأكثر من ذلك ..

- أهناك أكثر من كل هذا ؟ !

- بالطبع يا مولاى .. كل ما أخشاه ثورتكم .. لكن خوفى على سمو الأمير يدفعنى أن ..

يقاطعه السلطان فى عصبية :

- اختصر يا وزير ..

- تخيل يا مولاى أن .. أن سمو الأمير يقرأ الكتب .

- يقرأ الكتب .. !!

- تصور يا مولاى .. يتعب نفسه ويرهق أعصابه وعينيه بقراءة الكتب .. !

- ابن السلطان « نعمان ».. يتعب نفسه !.. ويرهق أعصابه ! .. وعينيــه !!

- والأدهى من ذلك .. أنه .. أنه يتردد على صومعة الحكيم .. ليستعير الكتب .. كما يصر يا مولاى ..

- يصرّ على ماذا ؟

- يصرّ على قراءة كل كتب المكتبة .. وكافة مجلداتها ..

- فظيع ! .. فظيع !!

ينظر السلطان مليا إلى الوزير .. ثم يفاجئه بسؤاله :

- وكيف عرفت كل هذه الأخبار .. ؟

لم يرتبك الوزير الماكر ورد فى لباقة :

- عرفته بذكائى .. لقد اختارنى مولاى وزيره لذكائى .. أليس كذلك يا مولاى ؟

- إنك بالفعل أذكى الأذكياء .. علاوة على وفائك وحرصك على مصالح القصر والسلطان .. وإنى ممنون لك .. ولذا فإنك جدير بمكافأة كبيرة .. كبيرة ..

كتم الوزير فرحته حتى لا يفتضح أمره .. وعقّب فى دهاء :

- كل أمنيتى رضاء مولاى .. والسهر على راحته .. ورعاية أفراد أسرته ..

وانصرف الوزير المخادع .. وهو يهنىء نفسه ولسان حاله يقول :

- مكافأة كبيرة ! .. ستقضى بقية عمرك فى النعيم .. فعلاً .. لعقل زينة !

استدعى السلطان الأمير « نور الدين » .. وجاء الأمير يقف بين يديه .. كان السلطان قد عبس وجهه وظهر فيه غضب لم يألفه الأمير .. فسأل فى دهشة :

- خيرا يا مولاى ..

فاجأه صياح السلطان :

- ومن أين يأتى الخير ؟

اشتدت دهشة الأمير :

- ما الخبر يا مولاى ؟ !

- ألا تعرف الذنب الكبير الذى ارتكبته فى حق الأسرة الملكية جمعاء ؟ !

إلتبس الأمر فى عقل « نور الدين » :

- ذنب كبير !!

- كيف يا أمير .. كيف تسمح لنفسك بتعليم ابنة الدادة .. أصول القراءة والكتابة ؟ !

- « فيروز » ؟

- أجل .

- أوهذا الذنب الذى يقصده مولاى ؟ !

- هو بعينه ..

- كيف ؟ !!

- إن « فيروز » خادمة مثل أمها .. والتعليم لا يخص سوى أبناء الملوك والسلاطين ..

- لكن ..

- لا تتفوه بكلمة واحدة ..

وجم الأمير وأذعن لأمر السلطان متحيّراً .. أشفق عليه السلطان .. وقال فى لين :

- واضح أنك تجهل بعض الأمور .. فمازلت صغيرا .. ولذا سأصفح عنك .. ولا أحب أن تكرر خطأك .. ولتعلم أن مهمة المخدم .. هى خدمة السلطان وأسرته .. التعليم للأسياد وليس لتخدم يا « نور الدين » .

واصل الأمير صمته واستطرد السلطان :

- وكما لا يصح لابن السلطان أن يتعب نفسه ويرهق أعصابه بقراءة الكتب ..

- ألا تليق القراءة أيضاً بالأمراء وأبناء السلاطين ؟ !

- بل يجب ألا يتعبوا أنفسهم .. ولا يرهقوا أعصابهم .

- ولكن القراءة مصدر العلم .. والعلم نور يضىء عقولنا .. ويفتح أذهاننا.. وبالعلم ..

يقاطعه السلطان فى حدة :

- هذا لا يناسبنا .. وكل ما علينا هو أن نسعد وننعم ونبتهج .. وغيرنا يتعب ويدبر ويفكر .. الدولة دولتنا .. والناس جميعا طوع أمرنا .. ورهن إشارتنا ..

- فما فائدة العقل إذن ؟ ! .. ولماذا ميّز به الله الإنسان على سائر الحيوان ؟

- أنسيت يا أمير .. إن أكبرنا سلطان .. وأصغرنا أمير ؟ ! ..

واسترسل الأمير :

- كل البشر سواء .. ولا فضل لأحد على غيره إلاّ بالتقوى وصالح الأعمال .

أطرق السلطان قليلا بينما كان يتفرس فى وجه الأمير ثم هتف فى لهفة قائلا :

- إنك مريض بالتأكيد .. ولذا سأرسل فى طلب الطبيب .

وجاء الطبيب .. وبين شغله بفحص الأمير .. قال السلطان فى ثقة :

- إنه يعانى من الحمّى .. أليس كذلك ؟

- أبدا يا مولاى .. !

حار السلطان ..

- لقد كان يهذى ويخرّف بكلام غريب ! .. مم يشكو إذن ؟ !!

ابتسم الطبيب قائلا :

- أرجو أن يطمئن قلب مولاى .. فسمو الأمير موفور الصحة والعافية ..

تأمل السلطان الطبيب سائلا نفسه فى ريبة :

- ما الحكاية ؟؟

كان الأمير مشغولا بقراءة كتابه الذى استعاره من مكتبة الحكيم .. جاء إلى سمعه صوت غناء جماعى .. أنصت قليلا ثم عبّر قائلا :

- لحن جميل !!

نادى على « فيروز » وسألها عمّن يغنى فأجابت :

- إنهم خدم القصر ..

بشّ وجه الأمير وعلته الدهشة :

- خدم القصر يغنون ! .. وما المناسبة ؟ !

- دون مناسبة .. إنهم يغنون كلما شدّهم الحنين إلى الغناء ..

أرهف الأمير سمعه ...

- إننى لا أسمعهم جيدا .. هيا بنا يا « فيروز » ..

- إلى أين ؟ !

- إلى جناح الخدم ..

تذكرت « فيروز » واقعة عصافير « الكنارى » .. ترددت .. إلاّ أن الأمير لم يدع لها الفرصة ..

- هيا يا « فيروز » .. هيا ..

تقدم الأمير « فيروز » قاصدا جناح الخدم .. تبعته « فيروز » خائفة وجلة .. وكان رئيس الحرس يتعقبهما .. يُفاجأ الخدم بدخول الأمير فيسكتون عن الغناء ويعم السكون المكان ..

يستغرب الأمير .. يتبادل « وفيروز » نظرة ويهمس لها :

- لماذا سكتوا يا « فيروز » ؟

- لقد أسكتهم الخوف ..

- الخوف ؟ ! .. ممن ؟ !!

- من سمو الأمير ..

- منى أنا ؟ !!

تعجب الأمير .. ولم يلبث أن قال لهم :

- استمروا فى غنائكم وفرحتكم .. فما جئت إلاّ لأشارككم ..

لم يصدق الخدم فى بادىء الأمر .. كرر الأمير طلبه .. عندئذ عاد جو المرح وعاد الغناء .. ولم يلبث الأمير أن شاركهم .. واندمج يغنى معهم ..

(٧)

اختلس رئيس الحرس نظرة على الخدم .. تعجب حين رأى الأمير بينهم .. يصفق ويغنى معهم .. !

- رائع ! .. بل أشد روعة .. !!

طار رئيس الحرس إلى سيده « فواز » ليبلغه خبر الأمير .. ولم يُضع «فواز» الفرصة الثمينة .. فعجّل فى مقابلة السلطان لأمر هام .. وبلّغ السلطان الخبر المثير .. هاج السلطان .. وطلب الوزير أن يصطحبه إلى جناح الخدم ليرى بنفسه.. ويتأكد من صدقه .. عندئذ صاح السلطان فى وجه الوزير :

- كيف يذهب السلطان إلى جناح الخدم ..؟!.. أفقدت عقلك أيها الوزير؟..

اعتذر الوزير .. وأمر السلطان بحضور الأمير .. وعندما وقف « نور الدين » بين يدى والده .. اعترف بما أقدم عليه .. وطال بينهما الجدال .. وأسكت السلطان ولده وأصدر فرمانه .. بألا تطأ قدما الأمير جناح الخدم .. كما أمره بأن يعدّ نفسه لمصاحبة أخويه فى رحلات الصيد ..

- رحلات الصيد ؟ !

- أجلْ ..

- وماذا أصيد يا مولاى ..

- الغزلان .. إنها لعبة الأمراء والسلاطين .. ما ألطفها .. وما أمتعها !!

- لكنى لست مغرما بهذه اللعبة ..

- لست مغرما بها ! .. كيف ؟ !

- لأن الغزلان طيبون .. ولم يضرونا بشىء فلم نصطادها ؟ ! .. وكل غزالة إما أن تكون أما لأولاد .. أو ابنة لها أم وأخوات .. فلم نعذبهم ونسبب لهم الأحزان والحسرات ؟ ..

انفجر السلطان ضاحكا ..

- هاهاها .. مازلت طفلا يا « نور الدين » .. عندما تكبر ستغير رأيك .. ولا شك أنك ستعشق لعبة الأسياد .. بل وستكون أحب الألعاب لديك .

كان الوزير يمعن فى ردود الأمير التى تؤكد وعيه وقوة شكيمته .. عندئذ ينمو احساسه بخطورته .. خاصة وأن الأمير يحتل ركنا كبيرا فى قلب أبيه .. والذى دائما ما يصفح عنه مهما بلغ ذنب

الأمير .. ومهما هوّل الوزير فى عرض أخطائه .. مما يبدد تدابيره ويضيع خططه .. ويفشل مؤامراته .

يسمح السلطان « لنور الدين » بالانصراف .. بينما علا صوته بالضحكات.. وكان الوزير ساهما مع أفكاره ومخاوفه .. إلا أنه يفاجىء السلطان بصياحه :

- وجدتها .. وجدتها !!

يتعجب السلطان من أمر الوزير الذى صاح كالملدوغ :

- ما الذى وجدت ؟

ويندفع الوزير :

- فكرة جهنمية ..

- آتنى بها يا عزيزى ..

يسكت الوزير برهة قاصدا تشويق السلطان ثم يقول :

- « شملول » ..

- شملول ؟ ! .. أتفزّر يا وزير كحكيم الزمان ؟

- حاشا لله أن يشبهنى مولاى بهذا الرجل ..

يغرق السلطان فى الضحك :

- من « شملول » هذا ؟

- إنه .. إنه أشهر الموسيقيين بالمملكة ..

- هات ما عندك يا وزير ؟

- فلنعهد إلى « شملول » بتعليم سمو الأمير أصول العزف والموسيقى .. وبذلك نضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد ..

- عظيم .. ! .. العصفور الأول ؟

- أن يبتعد سمو الأمير عن الحكيم الخَرِف .. فلا تتسمم أفكاره ويفسد عقله.. وبالتالى يبتعد عن الكتب التى ترهقه .

- إنه لعصفور ثمين .. ! .. والثانى ؟

- ينأى أميرنا الحبيب عن جو الخدم .. فلا تسوء تربيته .. والتى تصيب الأسرة السلطانية وتشوه سمعتها ..

تتسع ابتسامة السلطان قائلا :

- والعصفور الثالث ؟

- يشغل سمو الأمير وقته بما يحبه .. بالموسيقى الرفيعة .. والعزف الراقى.. والموسيقى الرفيعة لعبة الأسياد .. والعزف الراقى تسلية النبلاء ..

صاح السلطان متهللا :

- يالك من عبقرى !!

يواصل الوزير نفاقه قائلا :

- عبقريتى وذكائى وكل حياتى فى خدمة مولاى السلطان ورهن إشارته ..

- فلترسل إلى « شملول » على وجه السرعة ..

ضحك الوزير وضحك معه السلطان .. والفرق بين الضحكتين شاسع .. ! ..

واستمرا يضحكان ..

يأتى « شملول » إلى القصر .. وبعد أن قدّم فروض الولاء والطاعة للسلطان.. قال السلطان فى خيلاء :

- اسمع يا « شمعون » ..

تعجب الموسيقى .. فكيف لا يعرف السلطان اسمه .. وهو أشهر الموسيقيين .. ؟ !

فصحح له :

- « شملول » يا مولاى .. « شملول » ..

- اسمع يا .. « شملول » .. لقد اخترتك لتعلم نجلنا الأمير « نور الدين » أصول الموسيقى والعزف على الآلات الموسيقية .

- لعله يكون لديه الاستعداد ..

ردّ السلطان فى دهشة :

- ماذا تعنى بالاستعداد ؟ !

- استعداد بمعنى موهبة .. منحة من الله سبحانه وتعالى ..

- تقصد أن يكون محبا للموسيقى ؟

- هذا لا يكفى ..

- كيف ؟ !

- الموهبة .. بمعنى أن يكون استعداده طبيعيا .. أذنه موسيقية .. حسّه مرهفاً .. وإلاّ سننقش على الماء .

لم يفهم السلطان عبارات الموسيقىّ .. فأوضح الموسيقىّ قائلا :

- أى أنه لن يكون مبدعا .. ولا فنانا ..

انفجر السلطان بالضحك بينما قال فى سخرية :

- فنان .. هاهاها .. فنان !! .. إنه أمير .. ابن سلطان .. وحفيد سلاطين ..!

وأضاف الوزير :

- المهم أن يشغل وقت فراغه بتعلم الموسيقى .. يعنى تسلية .. تلهية .. أقصد أن .. أن يشغل وقته بهواية راقية .. تناسب أميراً .. ابن سلطان ..

هز السلطان رأسه فى عزة وكبرياء مصدقا على كلام الوزير .. وهم يحفل أحدهما بالموسيقىّ الذى اكتست ملامحه بالدهشة .. وفى تلك اللحظة يدخل الأمير فى صحبة الحرس .. يقع بصره على الموسيقىّ فيسرع إليه ويشد على يده فى حرارة بينما يقول :

- مستحيل .. الموسيقىّ العظيم « شملول » فى القصر ! .. يا مرحبا .. !

همس السلطان فى أذن الوزير :

- كيف عرفه ؟ !

أجاب الوزير مهوّلا ومبالغاً :

- من الكتب التى يقرأها .. ألم أخبر مولاى أن الكتب خطيرة ؟ ..

قال السلطان دون تفكير :

- خطيرة .. ! ..

بادر الوزير بتصحيح خطأه قائلا :

- أقصد أنها .. أنها ترهق أعصابه ..

عبّر الأمير فى صـق :

- إننى أسعد إنسان .. !

ابتسم الموسيقى فى خجل .. ثم قال السلطان للأمير :

- سيقيم شملىلَ فى القصر .. ليعلّمك أصول الموسيقى والعزف ..

ابتسم الأمير مستبشرا :

- إنه لشرف كبير .. !

ثم عاد ليصافحه مرحّبا .. بينما تبادلا ابتسامة ودّ .. واستأذن الموسيقى .. ولازمه الأمير ورئيس الحرس حتى قاعته .. حين تبادل السلطان والوزير نظرة .. فابتسامة .. وعاد السلطان ليثنى على الوزير .. ويجزل له العطاء .. وهكذا استطاع الوزير بدهائه وحيلته أن يحل مشكلته ويؤمّن مستقبله من خطر الأمير الذى يتهدده .. ويؤرق نومه .. ويعكر صفوه ..

فى أول لقاء بين الموسيقى والأمير .. ينبهر الأستاذ باستعداد التلميذ .. وزاد إعجابه حين قرأ قصائده وأشعاره ..

- إن لديك موهبة أصيلة .. إلاّ أن الموهبة تُصقَل وتُنمّى بالدراسة والثقافة الموسيقية .. والقراءة الواعية ..

- مكتبة القصر تزدحم بكتب الفن .. وسير الفنانين القدامى والمعاصرين ..

- وما يجب أن تعلمه .. أن طريق الفن تحوطه الأشواك .. والمعاناة .. ولذا ينبغى أن تتحلى بالصبر .. ومواصلة المسيرة مهما كان الجهد .

بانت ملامح الجد فى وجه الأمير .. وكان منصتا لحديث أستاذه .. يحفر كل كلمة فى ذهنه .. ويواصل الموسيقىّ حديثه ثم يختتمه قائلا :

- ورغم معاناة الفنان .. إلاّ أنه يحس بالمتعة خلال معاناته ولحظات إبداعه.. ويشعر بالراحة والسعادة بعد إنجازه أعماله ..

يشكر الأمير أستاذه الموسيقىّ ويستأذنه فى الانصراف .. وسرعان ما يتوجه إلى الحكيم .. الذى يتهلل وجهه عندما يبصر الأمير قادماً إليه .. فقد كان فى شوق للقائه والوقوف على أخباره ..

ويتعانقان .. ويستمع الحكيم إلى رواية الأمير .. وكيف تطورت الأحداث .. ويبارك الحكيم خطواته الأولى فى طريق النجاح .. وينتهز الأمير الفرصة .. ويسأل الحكيم عن الفن .. ويبتسم الحكيم فى إعجاب .. ثم يرد عليه :

- الفن لغة كل لسان .. يفهمها كل بنى الإنسان ..

عقّب الأمير مداعبا :

- أوَ لابد للفنان أن يتعلم لغات ؟ .

ضحك الحكيم لأول مرة .. فقد كان يكتفى بالابتسام .. ومن خلال ضحكه يقول :

- بل يولد الفنان عليما بها ..

وشاركه الأمير ضحكه .. واستطرد الحكيم :

- إننا لا نعرف لغة العصافير .. ومع ذلك نستمع إلى غنائها .. ونطرب لـــه ..

- والفنان ؟

- الفنان .. هو صانع الفن ومبدعه .. رائد الحب والصدق والجمال .. يعلمنا حب الطبيعة والمخلوقات .. ويشعرنا بجمال الحياة وقيمة الإنسان ..

- ليتنى فنانا أنشر الحب فى الشرق والغرب .. وكل ربوع لدنيا ..

- دع عنك التمنى يا صديقى .. فما نيل المطالب بالتمنى .. ولكن تؤخذ الدنيا غلابا .. أى بالعمل المتواصل وبالصبر يبلغ الإنسان مراده .. ويحقق هدفه .. ويصنع المعجزات المهم أن يكون عزمه أكيداً .. وهدفه مفيدا .

- والموسيقى ؟

- أرق لغات الفن .. تهز أوتار القلب .. وتحرك المشاعر ليحس الإنسان بأخيه الإنسان .. إنها دعوة رقيقة للحب .

حان انصراف الأمير . قام الحكيم إلى ركن الفن بالمكتبة .. وانتقى كتابا فى الموسيقى .. ناوله للأمير .. الذى ألقى نظرة على عنوانه .. تبادلا ابتسامة صافية .. وينصرف الأمير يضم كتابه إلى صدره .. وأيضا كانت عينا رئيس الحرس ترصده أينما ذهب .. وحيثما حلّ .. ليبلّغ سيده الوزير بتحركات الأمير واهتماماته .. ويحدث الوزير نفسه حديثا شيّقا :

- لقد غرق الأمير فى حب الموسيقى .. ولا خطر من لقائه بحكيم القصر .. ذلك الرجل الغامض الكئيب .. يا لرجاحة عقلك يا « فواز » !.

هنأ الوزير نفسه بزوال أسباب الخطر .. وعاد يضحك .. واستمر فى ضحكه كأنما لم يضحك من قبل !

(٨)

انهمك الأمير فى تعلمه .. ودراسة فن الموسيقى .. وكتابة القصائد والأغانى.. ولم يتأخر يوما عن زيارة دادته ولقاء صديقته « فيروز » .. وكان يوّصل لـ « فيروز » كل جديد مما عرف عن العلوم والفنون .. أو يقرأ لها إحدى قصائده .. أو يغنيان معا إحدى أغنياته ..

التقى يوما مع أستاذه .. وكان اللقاء فى حديقة القصر بين أحضان الطبيعة الخلابة .. ودار حوارهما حول الفن .. فقال الأستاذ :

- لكل فنان أدوات .. وأدوات الموسيقىّ .. الطبيعة والإنسان .. الطبيعة .. بشمسها وقمرها .. ولمعان النجوم فى ظلمة الليل .. بتلالها وجبالها وزروعها.. الطبيعة بكل أجزائها تلهم الموسيقى ..

- والإنسان ؟

- يعبر الفنان عن مشاعره .. فيبكى مع الحزين .. ويضحك مع الفرحان .. يعبّر عن بسمة رقيقة .. لحظة حب عميقة .. زفرة حيران .. صرخة ألم .. صيحة أمل .. والفن لا يتحقق بين الجدران .. بل بين الطبيعة والمخلوقات وبنى الإنسان ..

انهمك الأمير فى تعلمه ودراسة فن الموسيقى

وفى الدرس الأخير قال الأستاذ :

- الفنان يملك الدنيا بأسرها .. والفنان أيضاً مِلكٌ للآخرين ..

- كيف ؟؟ !!

- الأمر هيّن وبسيط .. فهو يملك أن يعبّر عن الأرض بكل بقاعها .. والسماء بكل ما يدور فيها .. ويعبّر عن الإنسان سيد الأرض وسلطانها .. وفى الوقت نفسه يعمل ويبدع .. ويهب حياته فى خدمة الإنسان والإنسانية .

وفى حفل كبير .. حضره السلطان ووزيره .. وحاشية السلطان .. وكبار رجال الدولة .. فى ذلك الحشد الكبير .. أعلن « شملول » عن مولد فنان أصيل فى عالم الموسيقى والطرب .. ويعانق التلميذ أستاذه غير آبه بجو السخرية من حوله.. وكان الوداع حارا .. وكانت دموعهما خير وسيلة للتعبير .

لم ينم الأمير طيلة ليلته .. ولم يستطع أن يوقف سيل دموعه .. وجاء صوت أستاذه :

- الفنان حلقة وصل بين الماضى والحاضر .. فلا بد أن يضيف الجديد المفيد كل يوم .. ويحسّن كل ساعة .. ويجدِّد كل لحظة فى عمره .. إن كل يوم يضيع بلا فن يُعد خسارة فادحة على

لإنسان والإنسانية .. ولذا يُكتب الخلود للفنان.. وما زلت وصيك .. إن رأس مال الفنان .. الحب والصدق والصبر ..

– الفنان كالشمعة التى تحترق لتنير لغيرها .. وكل ما يسعد لفنان أن يرى الناس .. وهم يستضيئون بنوره .. ويسيرون على هديه ..

وما زالت عينا الأمير تذرفان الدموع حتى أخذه النعاس .. وصحا فى الصباح وما زال يجتر حديث أستاذه وذكرياته .. قضى اليوم فى شجونه .. لم يستطع أن يكتب كلمة .. وكانت جملة لأستاذه تطن فى أذنيه كل حين :

– الفن لا يعيش بين الجدران .. بل بين الطبيعة والمخلوقات وبنى الإنسان ..

لحظت الدادة وجومه فسألته فى لهفة :

– ماذا بك يا بنى ؟ !

– لا شىء يا دادة .. لا شىء ..

ألحّت الدادة فى سؤالها فأجابها :

– أشعر بالضيق يا دادة ..

– تشعر بالضيق .. كيف ؟ .. كيف تكون أميراً ابن سلطان .. الدنيا كلها بين يديك .. وتشعر بالضيق ؟ !

- لا أدرى .. لكننى أشعر بضيق القصر ..

- وكيف يكون القصر ضيقا ؟ .. !!

- أشعر كأن جدرانه ستنطبق فوق رأسى ..

- إنها تهيؤات .. وكلها من أثر سهرك فى الأيام الأخيرة .. يجب أن تأخذ كفايتك فى النوم يا « نور الدين » .

- ليست تهيؤات ولا خيالات .. ولا من أثر السهر .. بل .. بل هذا ما أحسه بالفعل ..

- الأمر عليك هيّن .. يمكنك الخروج من القصر ..

هتف الأمير فى فرحة :

- ماذا تقولين يا دادة .. أ .. أهذا ممكن ؟ !!

- ولمَ لا ؟ !

- و .. وهل يوافق مولاى السلطان ؟

- إنه لا يرفض لك طلبا .. بل يسعده ذلك ..

يعجّل الأمير بلقاء السلطان فى جناحه .. يستدنيه والده ويجلسه على متكئه.. وبعدئذ ينطق الأمير برغبته فتغشى السعادة وجه السلطان ..

- طلب بسيط لولدنا الحبيب .. ولتخرج للصيد مع أخويك صباح الغد ..

- إننى .. لا أقصد الخروج للصيد .. وإنما إلى حيث أرى الناس .. والبلاد .. هز السلطان رأسه :

- لقد عرفت ما تريد .. إنك ترغب فى زيارة بلاد المملكة .. لديك كل الحق يا « نور الدين » .. فيجب أن ترى دولة المستقبل .. يا سلطان المستقبل ..

وترتفع قهقهات السلطان ..

- استعد يا أمير .. غدا تضمك المركبة الملكية .. ويصاحبك موكب كبير وجمع غفير ..

دهش الأمير .. ثم همس :

- المهم أن أخرج من القصر ..

- ماذا تقول يا أمير ؟

- أ .. أقول .. المهم أن أخرج من القصر ..

ألقى السلطان أوامره بالإعداد لرحلة الأمير فى بلاد المملكة ..

وفى الصباح التقت به « فيروز » لتسأله عن يوم عودته .. فأجاب :

- لا أعلم يا صديقتى العزيزة .. كل ما لدى أننى أشعر بالشوق إلى الدنيا خارج القصر .. كأنى ذاهب إلى الجنة .

- الجنة !!

- بلى .. و .. وكم أودّ أن تكونى فى صحبتى ..

- أو هذا معقول يا سمو الأمير ؟ .. أنا ابنة الدادة .. وأنت ابن السلطان ؟!

وقال الأمير فى صدق شديد :

- كلنا بشر يا « فيروز » .. لا فرق بين سلطان وخفير .. ولا بين غنى وفقير..

- لكن هذا يغضب السلطان ..

- فعلا وهذا ما يسبب حيرتى ..

- لا عليك .. كل ما أرجوه أن تعود إلينا مسرورا ..

(٩)

ودّع الأمير والده السلطان الذى ضمه إلى صدره .. وأطلق لدموعه العنان .. كما .. ودّع أخويه .. ودادته .. وصديقته .. وحكيم الزمان ناصحه الأمين . كما لوّح للوزير الذى أخفى فرحته ..

ولوح أيضاً لرجال الحاشية الذين اصطفوا خلف السلطان .. واستقل الأمير المركبة .. وتحرك موكب الأمير الصغير .. مبتعدا عن القصر الكبير .. ومن نافذة المركبة .. كان الأمير يطل على الأشجار التى تتسابق .. ومساحات الأراضى الخضراء التى تُطوى .. ومن بُعد رأى الفلاحين وهم يفلّحون الأرض .. وطيور أبى قردان البيضاء تنتشر كنجوم فى السماء .. المناظر جميلة .. والمشاهد ساحرة .. فحس الأمير بالراحة ..

وظل الموكب سائراً بجانب القرى المتتالية .. حتى وصلوا أول مدينة ..

تهادى الموكب .. وما أن رآه الأهالى .. لتنطلق صيحاتهم :

- موكب السلطان .. موكب السلطان !!

تعجب الأمير حين رأى الأهالى يهرولون فى فزع .. ويفرون داخل الحوارى والأزقة ويختفون داخل البيوت .. وأصبح الشارع خاليا ! .. واصلت المركبة سيرها .. وكلما دخلت شارعا جديدا .. يسمع الأمير صياح الناس .. ولا تمضى لحظات إلا ليفروا أجمعين ! .. يقع الأمير فى حيره .. وما يلبث أن يأمر بالتوقف .

موكب السلطان ... موكب السلطان

تقف المركبة الملكية .. يركض حصان رئيس الحرس آيباً .. يقترب من الأمير الذى يتساءل فى دهشة :

- لماذا فر الأهالى ؟ !

- إنه شىء طبيعى يا سمو الأمير ..

- ما السبب ؟ !

- هذا ما تعودنا عليه فى كل جولات السلطان ..

تأفف الأمير ثم قال فى انفعال :

- إذاً .. فلنعد إلى القصر ..

وحين تمهل رئيس الحرس .. ردّد الأمير فى حزم :

- لنعد إلى القصر !!

زلزل قلب رئيس الحرس .. ولم يُبد اعتراضا .. وأمر بعودة الموكب بين دهشة الجميع .. وتعود المركبة .. ويطير الخبر إلى القصر .. ويتساءل الجميع :

- ماذا حدث .. ؟ ! ..

- لماذا عاد الأمير ؟ !

- هل أصاب الأمير مكروه ؟ !

التساؤلات تتردد بلا جواب .. ويصل الخبر إلى السلطان .. فتثور ثائرته .. ويقرر معاقبة الحراس .. الذين لابد أنهم أغضبوا الأمير .

توقفت المركبة داخل القصر .. ترجّل الأمير .. وانطلق إلى جناح السلطان .. الذى استقبله فى لهفة لمعرفة سبب قطع الرحلة وعودته المفاجئة .. ليقول الأمير فى بساطة :

- لن تحقق الرحلة الهدف الذى أنشده ..

- وماذا كنت تنشد يا « نور الدين » ؟

- كنت أود أن أرى أبناء الشعب فأجالسهم .. وأعرف كيف يتكلمون .. وكيف يفكرون .. و .. وأستمع إلى أغانيهم .. وأشاركهم ..

اتسعت عينا السلطان من فرط الدهشة .. ثم قال فى حدة :

- هل عدت إلى خَرِفك .. كيف للأمير سليل السلاطين أن يجالس أبناء الشعب ؟ . وكيف يشاركهم أغانيهم ؟ . ألا تعرف أننا معشر الأمراء والسلاطين نختلف عن أولئك الناس ؟ !

- كل ما أعرفه يا مولاى .. أننا جميعاً عباد الله .. و

- لقد عملت طيبا بقطعك الرحلة .. والعودة .. قبل أن تجلب لنا الفضيحة والسمعة السيئة .. واعلم يا « نور الدين » أنك لن تخرج من القصر إلا فى موكب رسمى ..

- موكب رسمى ؟ !

- أى فى صحبة السلطان .. عليك بالانصراف ..

ألقت عليه الدادة نفس سؤال السلطان .. وردّ عليها الأمير كما رد على والده السلطان .. ولم تستغرب الدادة فرارَ الأهالى حين وقعت أبصارهم على المركبة الملكية .. وعدّته مسلكا طبيعيا ! ..

(١٠)

سعى الأمير للقاء حكيم الزمان .. فهو الملاذ وهو الذى يستطيع أن ينتشله من حيرته .. وعندما يلتقيان يفاجئه الحكيم بأنه كان يتوقع ما حدث .. كما ندّت من الأمير صيحة دهشة حين قال الحكيم ببساطة :

- لقد فر الأهالى ..

- .. ليتنى أعرف لماذا فروا ؟ ! ..

- خوفا ..

سعى الأمير للقاء حكيم الزمان

- ممن ؟ !

- منك بالطبع

- لمَ ؟ !

- إن الناس دائما ما يخافون الحكام ..

- والسبب ؟

- إنها عادة قديمة توارثتها الشعوب .. وقَبِلها الحكام عن طيب خاطر ..

- وما السبب يا سيدى الحكيم ؟ !

- غدا .. تكتشفه بنفسك ...

عم الصمت جنبات القاعة .. قطعه الأمير فى لوعة :

- وكيف أجالس الناس .. وأشاركهم أحاسيسهم وأفكارهم .. وأغانيهم ؟

- أمر هيِّن ..

- هيِّن ؟ !!

- للغاية ..

- كيف ؟؟

- أن تكون مثلهم ..

- مثلهم .. تقصد بلا موكب ! ؟

بينما يشير الحكيم إلى ملبسه :

- نعم .. ودون ملبس الأمراء هذا ..

صمت الأمير لحظات ثم سأل :

- ملبس شعبى .. أليس كذلك ؟

- أجل ..

طلّت الفرحة من عينى الأمير وقال كأنما يحدّث نفسه :

- وهكذا لا يعرفنى أحد .. فلا يخافون منى .. ولا يفرون من أمامى .. و.. فكرة هائلة ! .. أشكرك يا سيدى فقد أسديت لى معروفا لن أنساه .

- لا معروف بين الأصدقاء .. إنه واجبى نحوك .. وإنها أول خطوة فى الطريق الطويل ..

- الطريق الطويل ! .. إلى أين ؟ !

- إلى الخير والفضل بإذن الله ..

واستأذن الأمير ليدبر أمره .. وودعه الحكيم قائلا كعادته :

- ستجدنى دائما فى انتظارك ..

عرض « نور الدين » الأمر على الدادة .. وطلب منها أن تدبر له زياً شعبيا.. ارتعدت الدادة ودقت صدرها بيدها .. ثم قالت بصوت مؤثر :

- أيرضيك أن يطردنا السلطان من القصر .. والقصر مأوانا .. وليس لنا فى هذه الدنيا سوى مولانا السلطان ؟ . تأثر الأمير وقال فى صدق وحماس :

- لا أرضى لكما إلا الخير .. فإنك فى مكانة أمى .. « وفيروز » صديقتى ورفيقة عمرى .. وهى فى منزلة أختى .

(١١)

عكف الأمير فى جناحه حزينا مهموماً.. فقد بهت أمله فى الخروج من القصر.. وامتدت يده إلى قلمه وكراسته ليسطّر مشاعره .. ويعبّر عن إحساسه بالضيق والاختناق ..

كما عبّر عن الدنيا البهيجة خارج القصر .. تلك التى رأى بعضا من مباهجها.. واختتم بالتعبير عن أمله الذى ينزوى .. وجلس يدندن على عوده بألحانه ويغنيها وحده ..

وفى تلك اللحظات يدخل رئيس الحرس فيتوقف الأمير عن الغناء .. ويستدعيه رئيس الحرس لمقابلة السلطان .. يدع عوده ويقصد جناح السلطان ..

كان السلطان جالسا فى أبّهته وعظمته .. وبالقرب منه يجلس الوزير وقد علته الفرحة .. ومن النافذة المطلة على حديقة القصر ظهرت المركبة الملكية ..

حيا الأمير والده فى أدب واحترام ..

- هيا يا أمير وارتدِ زىّ الأمراء ..

- ليتنى أعرف الوجهة يا مولاى ..

- لقد قرّرنا أن أصحبك معى ..

- إلى أين يا مولاى ؟ ..

- فى رحلة صيد ..

هتف الأمير فى ضيق :

- رحلة صيد ؟ !

- نعم رحلة صيد .. وإنه فرمان .. أى قرار من السلطان ..

- ليت مولاى يعفينى من هذه الرحلة .. فإننى لا أطيق أن أرى الحيوانات تتألم وتتعذب .. فكيف أصطادها بيدى ؟ ! .

- وماذا يضيرك أنها تتألم أو تذهب إلى الجحيم .. إنها حيوانات ..

- الحيوانات تحس كما نحس .. وما ذنبها ؟ .. كما إننى مشغول بالكتابة والتلحين ..

انقلبت سحنة السلطان وقال فى غضب :

- أتعصى أوامر السلطان ؟

- لا يا مولاى .. بل .. بل أخشى أن أصاب بعقدة نفسية ..

ارتبك السلطان فجأة .. وردد فى خوف :

- عقدة نفسية !!

ثم التفت نحو الوزير والخرس .. ونفخ صدره ورفع هامته .. وقال مصطنعا الحزن والصرامة :

- فرمان سلطانى إلى الأمير « نور الدين » .. بأن يبقى فى القصر .. ويستمر فى الكتابة والتلحين .. !

أخفى الأمير ابتسامته .. قائلا :

- سمعا وطاعة يا مولاى ..

ينصرف الأمير وقد غشيت السعادة قلبه .. وعاد يراوده الأمل فى الخروج من القصر .. دخل حجرته .. فوجىء بكيس فوق فراشه ! .. استغرب .. فتح الكيس .. تأمل ما بداخله .. صاح فى سعادة :

- يا إلهى ! .. زى شعبى .. يا للحظ السعيد !! .. لقد جاءنى فى الوقت المناسب .

وما يلبث أن يهرول إلى الدادة ويثنى عليها ويقبّلها .. وكانت عيناها تدمع من خلال ابتسامتها .. فيقول الأمير فى صدق شديد :

- حياتى فداك يا أمى الحبيبة ..

يتعانقان .. وفيروز تتابعهما فى فرحة عميقة .. فقد شاركت فى جلب السعادة إلى قلب الأمير .

الظروف مواتية .. فالسلطان وأخواه فى رحلة الصيد .. وسرعان ما يجتمع الأمير مع الدادة « وفيروز » يتشاورون .. ويرسمون خطة خروج الأمير ..

صباح اليوم التالى .. ارتدى الأمير ملبسه الشعبى .. نظر فى المرآة .. ابتسم فى رضا ..

- لقد أصبحت كواحد من أبناء الشعب !

وشرعوا فى تنفيذ خطتهم .. سبقتهما الدادة إلى بوابة القصر الجانبية .. تبعها الأمير « وفيروز » على بُعد.. وقفت الدادة مع الحارس لشغله بحديث ما .

مرّت « فيروز » وفى صحبتها الأمير .. استوقفهما الحارس .. نزعت الدادة وبادرت قائلة :

- إنه خادم جديد ..

هز الحارس رأسه فى ريبة ..

- كأنى التقيت به أو رأيته من قبل ! .. أين .. أين ؟ !

لم تعطه الدادة الفرصة فقالت فى ثقة :

- أقول لك إنه خادم جديد جاء بالأمس فى وردية الليل ..

ثم وجّهت الدادة كلامها للأمير و« فيروز » بقصد التمويه على الحارس :

- لا تتأخرا يا « فيروز » .. الأمير « نور الدين » فى انتظاركما ..

ثم قالت للحارس الذى كان يعصر فكره ويحاول أن يتذكر .. أين رأى ذلك الخادم الجديد .

- لا ترهق نفسك .. يخلق من الشبه أربعين ..

وانطلق الأمير بـ « فيروز » .. وعادت الدادة .. وإن نجحت الخطة إلاّ أن الخوف ملأ قلبها .. ورفعت صفحة وجهها إلى السماء داعية الله بالستر والسلامة ..

وأخذ الأمير يجرى هنا وهناك بين ضحكاته الصافية .. تنفس بملء رئتيه غير مصدق .. وكأنه يعيش أحداث حلم سعيد .. هرول « وفيروز » من خلفه سعيدة لسعادته .. وظلا فى سباقهما حتى بلغا أقرب القرى إلى القصر ..

يجد الأمير نفسه بين الناس .. جعل يتأمل وجوههم ويستمع إلى كلامهم فى حرية .. استوقفه البائعون ونداءاتهم .. واصلا سيرهما بين الزحام .. اجتذبته عربة « ترمس » .. وقف يتأمل « القراطيس » .. والقلل الفخارية المتراصة وكومة « الترمس » .. وكأنها هرم صنع من حبّات « الكهرمان » .. والزبائن يتوافدون بينما البائع يغنى أغنيته من خلال مناولته « قراطيس » الترمس للأيادى الممدودة إليه :

- إجرى .. قرّب .. خد قرطاسك ..

شهّل .. جرّب .. أوعى الحظ يفوتك ..

ترمس لوز .. رخيص ولذيذ ..

اتسلّى وسلّى كمان أصحابك ..

واهدى كمان أحبابك ..

ترمس لوز .. رخيص ولذيذ ..

واحد واحد .. كله حياخد ..

ترمس لوز .. رخيص ولذيذ ..

إجرى .. قرّب ..

أعْجِب الأمير بكلمات الأغنية ولحنها .. تبادل و« فيروز » نظرة ذات مغزى.. ولم يلبث أن اندس فى الزحام .. هذا يدفعه .. وذاك تزيحه .. اشترى « قرطاسين » ناول أحدهما « لفيروز » .. وأخذا يأكلان .. استرعى انتباهه بائع « العرقسوس » حاملا قِدْرَهُ الزجاجى المحلّى « بالدلايات النحاسية » .. والأكواب حول وسطه والصاجين النحاسيين فى يمينه يجلجلان بأنغام مميزة .. وصوته يرتفع كل حين ..

- عرقسوس مثلّج .. إوعى سنانك ..

يا راوى العطشان .. ومطفّى نار الحرّان ..

وأيضاً يشترى الأمير كوبين .. كما اشترى « عسلية » .. من البائع الذى لفّها حول عمود طويل فى نهايته « شخليلة » .. تشخلل .. كلما دق العمود على أرض الشارع .. واشترى « بطاطا » .. وكان الأمير مبهورا بتلك المشاهد الممتعة .. وبالأنغام وكلمات الأغانى والنداءات المعبّرة .. وأهم مالفت نظره بساطة الناس وتواضعهم .. وابتساماتهم الصافية وضحكاتهم البريئة .

باقة زهور مختلفة لأشكال ومتعددة الألوان .. الفرح يشع فى كل قلب وفى كل صفحات الوجوه .. وَصَلاَ أطراف القرية .. جذبت الأمير مساحات الأراضى الخضراء .. الأشجار الباسقة وهى تتمايل لتصدر حفيفاً .. السقية وهى تدفع المياه من « قواديسها » .. إلى الجداول المنتشرة فى الأراضى المزروعة .. أبو قردان الوديع صديق الفلاح ونافعه فهو ينظف الزرع من الديدان التى تضرّ به .. افترش الأرض بجانب أحد الجداول .. أنصت إلى خرير المياه .. ما أعذب صوته !.. وما أرق النسيم ! . أتت إلى سمعه أصوات أطفال يلعبون .. التفت نحوهم .. تابعهم .. إنهم يلعبون لعبة الاستخفاء « الاستغمابة » .. هكذا قالت له « فيروز » .. جرى إليهم .. لم يخافوه .. والدليل أنهم لم يهربوا منه .. بل تسابقوا إليه والتفوا حوله وقد علت وجوههم ابتسامات لطيفة .. دعوه

لمشاركتهم .. اندمج معهم يلعب ويضحك .. لعب كثيرا وضحك كثيرا .. إنه يشعر كأنه واحد منهم .. وبعد اللعب .. سمع أحد الـلاحين يغنى موالا .. وفلاح آخر يرد عليه .. شده صوتهما .. وكلمات الموال التى تمتدح الصبر والصابرين وتحث على الكد وبذل الجهد .. معان جميلة .. ومشاهد أخاذة سحرت فؤاد الأمير ! .. وأشد ما بهره مشهد الغروب وحُمرة الشفق والطيور العائدة قبل حلول الليل ! .. والشمس الأم تتأهب لتنشر الضوء والدفء فى بقاع أخرى ! ..

وكان رواح الشمس إيذانا بالعودة قبل أن يفرش الليل ظلامه يبتلع الأشياء فى جوفه ! .. وقبل أن يشتد قلق الدادة .

عادا إلى القصر .. وكانت ليلة ما أسعدها .. قضاها الأمير مبهورا بما شاهده يتحاكى ويتغنى .. وكأنه عائد من الجنة .

وانكب الأمير على مكتبه يسكب انطباعاته شعرا رائعا .. ما يلبث أن يضع موسيقاه ثم يغنيه للدادة وفيروز ..

(١٢)

وفى اليوم التالى أخذ معه عوده واصطحب « فيروز » إلى الجنة خارج القصر.. وخرجا من البوابة الجانبية للقصر .. وما زال الحارس يفتش فى ذاكرته أين رأى وجه الأمير الخادم ! .

يهبطان فى قرية أخرى .. ويستريحان تحت أول شجرة ظليلة .. جعل الأمير يتأمل الفلاحين وهم ذاهبين إلى حقولهم ساحبين بهائمهم .. مصطحبين أبنائهم .. وزوجاتهم تحملن جرارهن على رءوسهن .. اهتز قلبه طربا وسرت النشوة سريان دمائه .. وامتدت يده إلى العود .. ليهز أوتاره بلحن جديد .. وكلمات جديدة تعبر عن إحساسه بجمال الريف وما يبصره من مشاهد الطبيعة الخلابة .. وشدة حبه للفلاحين انبسطاء .. وفى تلك اللحظات يخرج الأولاد من كتّاب القرية حاملين أكياسهم القماش بداخلها الألواح التى يكتبون على سطوحها آيات القرآن الكريم .. أتى إلى أسماعهم صوت غناء « نور الدين » و « فيروز » وأنغام العود ! .. توقفوا يتبادلون نظرات الدهشة .. وما لبثوا أن تسابقوا إليهما .. أخذوا يتأملون العود .. تلك الآلة العجيبة التى يرونها لأول مرة .. كما شد أسماعهم الغناء العذب .. فجلسوا حولهما ينصتون فى متعة وملامح الدهشة مرتسمة على محياهم .. وبعد لحظات ارتفعت أكفهم الرقيقة تصفق تبعا للأنغام .. مما شجع الأمير وصديقته على المضىّ فى الغناء .. ولا يمضى وقت طويل ليتجمع الكثير من الأهالى حول الغريبين المغنيين .. وكان الأمير أسعدهم جميعاً .. وما أن ينتهى الثنائى من أغنيتهما .. ليطلب المستمعون أغنية

ولا يمضى وقت طويل ... حتى يتجمع الأهالى حول الغريبين المغنيين

أخرى .. كما ينضم إليهما فلاح صغير بنايه .. وبين مقاطع الأغنية كان يعلو صوته بموال .. وكم تعجب جمهور المشاهدين حين رأوا الغريب يشارك الفلاح الصغير .. فتهللوا لهم وصفقوا .. لتنتشر السعادة فى المكان .. ويفاجأ الأمير بأحد الفلاحين يخرج من جيب « الصديرى » حافظة نقوده الكبيرة .. ويخرج منها قطعة فضية ويمد يده للأمير تعبيرا عن إعجابه .. يتعجب الأمير بينما ينقل بصره بين الفلاح وقطعة النقود ..

- خذها ولا تستحى ..

يهز الأمير رأسه معتذرا فى حياء وخجل .. فيقول الفلاح معاتبا :

- أترفض النعمة يا ولدى ؟

- أبدا يا عمى .. و ..

هتف الفلاح بين دهشته :

- عمى ؟ !

ثم علّق :

- كم هى حلوه من فمك يا .. يا .. إننا لا نعرف اسمك .. ما اسم الكريم ؟ ارتبك « نور الدين » فلم يتوقع ذلك السؤال ..

- اسمى .. اسمى « عبد الله » ..

ثم نظر إلى فيروز وأضاف :

- وهذه .. أختى .. « سعاد » ..

- عاشت الأسامى يا أخ « عبد الله » .. ويا أخت « سعاد » ..

ثم احمرّ وجه الفلاح بينما سأل الأمير .

- معذرة يا « عبد الله » .. لقد رفضت الأجر يا بنى .. فلماذا تغنى ؟

أطرق الأمير قليلا ثم أجاب :

- إننى لست محتاجا للمال .. وإنما أغنى حُبًا فى الغناء .. ولإسعاد الآخرين..

اتسعت عينا الرجل ثم قال :

- أغلب الظن أنك من الأكابر .. أعنى الأغنياء الموسرين ..

فزع الأمير «نور الدين » .. إلاّ أن آخر أنقذه حين تدخل مستفسرا :

- ومن أى بلد بالصلاة على النبى .. ؟

سكن قلب الأمير نوعا .. وابتلع لعابه ثم أجاب قائلا :

- عليه الصلاة والسلام .. إننى من بلدة بعيدة .. بعيدة ..

علّق الرجل ببساطة :

- تقصد أنك غريب ؟ ..

- بالضبط ..

ضرب الفلاح كفا بكف قائلا لمن حوله :

- إنه لأمر عجيب يا ناس .. ! ..

ثم يوجه كلامه للأمير :

- أتقطع كل هذه المسافة لتغنى دون أجر .. هذا شيء عجيب لم نسمع به من قبل .. !

وفى تلك اللحظة .. قدّم الولد « النایاتى » نايه للأمير .. راجيا أن يقبله هدية .. وقَبِلها الأمير بين ابتسامته الخجلى .. وأخذ « النایاتى » يدربه على كيفية استخدامه ..

وفى طريق العودة عبّر الأمير « لفيروز » عن مشاعره تجاه أولئك الناس الذين أحبهم حبا كبيرا .. ثم أخرج نايه وجعل يتأمله فى سعادة .. واستكمل الطريق وهو ينفخ فيه فرحا مبتهجا ..

وفى القصر شكر الدادة التى مهدت له وعاونته للخروج إلى الدنيا الجميلة بعيداً عن لقصر ! ..

أكد له الحكيم بأنه تخطى أولى العقبات فى طريق الفن المحفوف بالأشواك بعد نجاحه فى مواجهة الجماهير دون خوف أو وجل .. وتأثيره فيهم بما يؤكد صدقه فى الأداء والتعبير .. وقد صارحه الأمير عن شعوره بتأنيب ضميره حين اضطر لتبديل اسمه واسم « فيروز » .. إلاّ أن الحكيم أيقن له حسن تصرفه ليظل مجهول الشخصية لدى الناس .. وإلا ولّوا هاربين .. عندئذ أضاءت وجه الأمير ابتسامة صافية حين سكت ضميره عن لومه وهدأ عن تأنيبه .. وانفق نور الدين ليلته ساهراً مع قلمه وعوده .. ورغم تعبه ! . إلاّ أنه كان يعمل بحماس منقطع النظير .

(١٣)

اعتمد الأمير على نفسه فى رحلاته اليومية إلى القرى والمدن القريبة .. وذات مرة أتى إلى سمعه صوت الربابة .. فقصد ناحية الصوت .. وجلس على الأرض بجانب الجمهور المحيط بالمطرب العازف .. كم أعجب « نور الدين » بأنغام الربابة التى كان يسمعها لأول مرة .. كما أعجب بكلمات الأغنية الشعبية التى تؤكد بأن خالق الكون إله واحد لا إله إلا هو .. وأن الناس جميعاً عباده .. وكلهم سواسية .. ولا فرق بينهم إلاّ فى مخافة الله .. وأن العزة والجاه والعظمة والسلطان لله وحده ..

يتعرف بعض الأهالى على « نور الدين » .. فقد التقوا به من قبل .. ويطلبون منه أن يطربهم بصوته العذب .. وكم تكون فرحته .. ليستجيب إليهم ويغنى الأغانى والمواويل .. أغنية بعد أخرى .. وموالاً بعد موال .

كان السلطان فى إحدى المناطق الصحراوية حين فاجأه التعب .. وعندئذ يضطر الوزير لأن يأمر بتوقف الرحلة .. ولما اشتد به التعب .. جمع الوزير الحراس وارتفع صوته قائلا :

- قرار من وزير الدولة بقطع الرحلة والعودة إلى القصر .

تعجب الحراس لهذا القرار المفاجىء .. وتراخوا فى التنفيذ ليصيح الوزير فى عصبية :

- نفذوا الأمر على جناح السرعة .. فقد مرض مولانا السلطان ..

انزعج الحراس لما أصاب السلطان .. وسرعان ما أداروا الجياد إلى طريق العودة .. ولما أن كان الطريق طويلا فقد أمر الوزير باستمرار السير ليلا ونهارا.

سُرّ الوزير فى نفسه .. فكانت المرة الأولى ليصدر أوامره فى وجود السلطان .. وبعد مسيرة يوم وليلة .. عاد الركب إلى القصر .. وما أن بلغ الدادة خبر عودة السلطان الفجائية حتى اشتد بها

الرعب .. فلم يكن هذا فى حسبانها .. وإن كانت قد تحدثت به نفسها .. فالأمير خارج القصر ! .

كان الأمير فى المدينة يغنى لأهلها .. الذين توافدوا إليه من كل صوب ليستمعوا إليه .. وكانوا يطلقون صيحات الإعجاب .. ويطلبون منه المزيد .. وكانت أغانيه تعبر عن الحب وأثره فى حياة البشر .. موضحا صور الحب العديدة والفضائل وحميد الخصال والصفات .. وقد تهللت الجماهير وصفقت له مستحسنة كلمات أغانيه وألحانه وصوته العذب .

بقدر حزن الدادة على السلطان .. كان خوفها على الأمير .. وكان الوزير قد استعذب اصدار الأوامر .. فيصيح باستدعاء طبيب السلطان على عجل .. ويأتى الطبيب ويفحص السلطان .. ويطمئن الجميع على سلامته وينصح بالتزامه الراحة من عناء الرحلة لمدة يومين يسترد فيها عافيته .

تنبه السلطان لغياب الأمير « نور الدين » وكانت دهشته .. فأرسل فى طلبه معبّرا عن شوقه إليه .. وانتشر الحراس يبحثون عن الأمير فى القصر .. والحديقة .. لم يعثروا عليه .. سألوا حراس البوابات فأكدوا جميعاً أنه لم يغادر القصر .. وعندما أبلغوا الوزير صاح آمرا بالبحث عن الأمير فى كل مكان ..

وكانت « مرجانة » قد أغشى عليها .. وتأكد الجميع أنها صدمت بغياب الأمير.. ! ..

أسرعت الجياد تضرب الأرض بحوافرها .. تدخل من قرية إلى أخرى بحثا عن الأمير .. وواصلت ركضها حتى بلغت المدينة .. وجعل الفرسان يفتشون فى شوارعها وميادينها بين صياح رئيسهم :

- لا بد من العثور على الأمير ..

- لنعد به قبل غروب الشمس .

بصر الفرسان جمعاً غفيرا من الأهالى فاتجهوا إليهم .. وعندما رآهم الأهالى تفرقوا من حول الأمير .. وهربوا تسبقهم صيحاتهم :

- حرس السلطان .. حرس السلطان ! .

غضب الأمير ووقف يتأملهم .. تبادل الفرسان نظرات الدهشة .. علّق أحدهم قائلا فى استغراب :

- عجيب أمر هذا الصبى .. لماذا لم يهرب كما هرب الباقون ؟

.. دنوا منه .. صاح أحدهم :

- أنه يشبه الأمير !!

- لعله هو ..

- مستحيل ! ..

قفز رئيسهم من فوق حصانه .. خطا إليه .. تفرس وجهه .. صاح فى دهشة :

- سمّو الأمير « نور الدين » ؟ !

ما كذب الأمير قط .. وما نطق لسانه إلا الصدق .. ولم يكن قلبه يعرف الخوف .. لذا قال فى بساطة :

- نعم أنا « نور الدين » ..

أبلغه رئيس الفرقة بعودة السلطان .. وطلبه مقابلته .. وينسحب الأمير معهم فى هدوء .. وأخذوا سبيل عودتهم وهم مأخوذين بأمر « نور الدين » ..

وبعد مغادرة الفرسان المدينة .. وبصحبتهم « نور الدين » .. اجتمع الأهالى يتحدثون عن المطرب الغريب .. وفرسان القصر الذين قبضوا عليه ! .. وأخذوا فى الجدال حول ذلك الحدث جاهلين دوافعه وأسبابه ..

ذهل السلطان عندما رأى الأمير فى زى أبناء البلد .. وسأله فى استنكار فأجاب الأمير :

- لقد خرجت فى هذا الملبس دون مركبة ولا حرس .. حتى لا يفر الأهالى من أمامى .. ولأقضى وقتاً بينهم .. أغنى معهم .. وأغنى لهم فأدخل السعادة فى قلوبهم .

- إنك أمير ابن سلطان .. وحفيد أعظم السلاطين .. إلاّ أن تكون قد نسيت ؟ !

- لم أنس يا مولاى .. لكننى فنان .. مطرب .. لابد أن أغنى لعامة الشعب.. وأعبّر عن مشاعرهم .. الأرض كلها ملك للفنان .. والفنان ملك لبنى الإنسان ..

اغتاظ السلطان وقال :

- هراء . الأمراء لا يغنوا ولا يعبّروا عن مشاعر الناس .. وليسوا مطربين ولا فنانين .. بل إنهم يتدربون على الحكم وإصدار الأوامر والقرارات .. وعلى الناس جميعاً أن يغنّوا لنا .. ويسهروا على تسليتنا وإدخال السرور إلى قلوبنا ..

فضّل الأمير الصمت .. إلاّ أن السلطان يفاجئه متسائلا :

- ومن جلب لك هذ الملبس ؟ !

ويتذكر الأمير مصير الدادة لو أنه أخبر والده .. كما تذكر وعده لها .. فاضطر أن يجيبه قائلا :

- لقد دبرت كل شيء بمعرفتى ..

ضغط السلطان على أسنانه .. وقال فى مرارة :

- لقد نسيت بالفعل أنك أمير ..

لحظ الأمير ضيق والده فقال مشفقا :

- ما أردت أن أغضب مولاى .. ولكن .. كان شيء فى داخلى يجتذبنى ويدفعنى لرؤية الدنيا خارج القصر .

تبرم السلطان ثم قال فى حدة :

- لتكن هذه المرة الأخيرة ..

وأصدر السلطان فرمانا بعدم مغادرة الأمير للقصر مرة أخرى ..

كان الوزير فى قمة سعادته .. حين كانت الدادة فى أقصى درجات الخوف والقلق على الأمير .. وقد عضت أصابع الندم لمعاونته فى الخروج من القصر إلا أنها أكبرت موقف الأمير حين صدق وعده .. ولم يشِ بها عند السلطان .

(١٤)

قضى الأمير ليلته ساهرا مع أحزانه وذكرياته .. وعبثاً حاولت الدادة وفيروز التسرية عنه والتخفيف من أحزانه وبعض ما يشغله من الهم .

وأمسك بقلمه ليكتب بيتاً أو شطرا من الشعر .. إلا أن القلم أبَى .. حاول أيضا أن يعزف .. وخرجت الأنغام حائرة وغير منسجمة .. أودع العود مكانه.. واتخذ وجهته إلى صومعة الحكيم .. أصغى الحكيم لحكايته .. تأثر لها .. وعاد ليبث فيه العزم والتصميم :

- أوصيك بالجلد والصبر يا بنى .. فالصبر مفتاح الفرج ..

- أخاف السأم والملل يا سيدى ..

- الملل صفة الخامل الكسلان .. وليس هذا من سمة الفنان ..

- ماذا تقصد يا سيدى الحكيم ؟ ..

- الفن صديق وفى .. عبّر عن إحساسك .. حوّل مشاعرك إلى أغانٍ وألحان.. وبمرور الأيام ينمو الرصيد .. لعل تسنح الفرصة .. وتلتقى بجماهير المحبين فتواصل طريقك .. وتسعد جماهيرك ..

- أخاف أن يطول غيابى فينسانى الناس ..

- طالما أنك استهويت أفئدة السامعين .. فستبقى فى ذاكراتهم وأعماقهم .. ولا تتعجل فغداً يأتى الله بالفرج ..

انطلق الأمير من صومعة الحكيم إلى قاعة العزف . وقد اشتعل قلبه حماساً وانطلق قلمه .. يعبّر عن اشتياقه للدنيا الواسعة .. وعن عزمه بأن يحذو حذوَ نبات الصبار الذى يقاوم العطش فى قوة وثبات .. ورغم ارهاقه إلا أنه شرع فى تلحين الأغنية ..

استرد السلطان عافيته .. وقام من فراشه حيث عصافير « الكنارى » .. وجعل يهز أقفاصها .. إلا أنه توقف فجأة حين أتى إلى سمعه صوت ناى ! .. أنصت قليلاً . تجهم وجهه ثم نادى على الحراس .. وقف أحدهم على بُعد منه.. زعق فيه السلطان قائلا :

- أنغام حزينةٍ فى قصر السلطان ؟ !

- أ .. أجل يا مولاى ..

صرخ السلطان :

- وتقول أجل .. !!

- إ .. إنه .. إنه ناى يا مولاى ..

وصاح آمرا :

- فليتوقف هذا الناى ..

- إنه .. إنه سمو الأمير « نور الدين » ..

- « نور الدين » !! .. فليأت فى التو واللحظة ..

ويهرول الحارس مذعورا .. تاركا السلطان فى غليانه .. ليأتى الأمير الذى يتأمل والده وقد ظهر الغضب فى وجهه وفى صوته حين سأله فى دهشة :

- أتعزف نغمات حزينة فى قصر السلطان ؟ ! ..

قال الأمير فى ثبات :

- نغمات الناى دائما حزينة يا مولاى ! ..

وعاد السلطان يصرخ :

- الحزن ممنوع فى قصر السلطان ..

ثم هدأ قليلا واستطرد :

- فى القصور سعادة وأفراح .. فى قصر السلطان أجمل السهرات وأبهى الحفلات .. والناى الحزين مكانه بعيدا .. فى الغيطان مع الفلاحين ..

مضى الأمير قائلا فى ثقة :

- كل النغمات جميلة طالما أنها تعبر عن الإحساس .. والآلات الموسيقية تكمل بعضها البعض ..

يضيق صدر السلطان فيقول :

- « نور الدين » .. كف عن هذا الهراء .. ولتعلم أننى لا أحب النغم الحزين .. ولا أحب أن أسمع صوت الناى ثانية فى القصر ..

عاد الأمير أدراجه إلى جناحه .. ووصايا الحكيم تتردد فى سمعه .. وعاد يستكمل إبداعاته فى همة وحيوية !!

يواصل الأمير أشعاره وأغنياته الحزينة .. فقد اشتد شوقه إلى العالم بعيدا عن القصر .. حيث الطبيعة بمساحاتها الخضراء .. وأشجارها المورقة .. ومياهها الجارية .. وسمائها الصافية وبهائمها العجماء .. وناسها البسطاء الذين يكدحون بالنهار .. ويتسامرون شطراً من الليل.. وينامون مبكرا مثل العصافير .

وارتفع صوته يغنى من أعماقه .. وأيضاً خرج صوته حزينا مؤثراً ! .. وكانت الألحان تبعث الشجون .. رغم سكوت الناى ! .. نغمات العود أيضاً حزينة .. ونغمات الكمان .. وكافة الآلات الموسيقية .. كانت جميعاً تعبّر عن مشاعر الأمير .. وكانت مثله .. تبكى شوقا ولهفة وحنيناً .. !!

(١٥)

لم ينم رئيس الحرس عن مراقبة الأمير فى كل حركاته وسكناته بأمر الوزير الذى أغدق عليه المال الوفير .. وكان ينبىء سيده أولا بأول بأخبار الأمير .. ماذا يغنى ؟ .. وإلى أين يسعى ؟ .. وبمن يتصل !! وفى ذلك اليوم تسنح فرصة للوزير للتفريق بين السلطان والأمير .. فلا يدعها تفلت من يده .. فيعجّل بمقابلة السلطان .. ومن خلال المقابلة يواصل خداعه متكلفا حرصه على مصلحة الأمير وحفاظه على سمعة السلطان وأجداده السلاطين ..ويمضى قائلا فى دهاء :

- لكم يحزننى ويمزق قلبى ما أتيت من أجله ..

يجزع السلطان .. ويتساءل فى رهبة :

- ما الذى يحزنك إلى هذا الحد أيها الوزير ؟ !

- أمر سمو الأمير « نور الدين » ..

صاح فى لهفة :

- ماذا أصابه ؟ ! ..

- انه بخير يا مولاى .. كلنا فداء لسمو الأمير .. ولكننى حزين من أجله .. فسموه ماضيا فى أغنياته الحزينة ! .. ولا ينقطع عنها ليل نهار !

هتف السلطان فى غيظ :

- أما زال يعزف على الناى الحزين ؟ !

- لا يا مولاى ..

- لا !! وكيف يعزف الأنغام الحزينة ؟ !!

- العجيب أن أنغام آلاته جميعاً تبعث على الحزن .. بل إلى البكاء .. لكأنها تبكى !

- لهذا الحد .. شنيع .. شنيع !! ..

ومضى الوزير فى نفاقه ومداهنته قائلا :

- معذرة يا مولاى .. ما كان بودّى أن أسبب لك الجزع .. ولكن خوفى على سمو الأمير وحبى الشديد له يدفعانى لأن أنبىء مولاى بكل ما يجرى فى القصر .. وخصوصاً فى حالات الخطر ..

اكتسى وجه السلطان بملامح الرهبة هاتفا :

- الخطر !!

- أجلْ يا مولاى .. من يصدق أن سمو الأمير « نور الدين » .. نجل مولاى السلطان « نعمان » .. من يصدق أن يردد .. أغنية الشعب ؟ ! ..

- أغنية الشعب .. هكذا ! .. إنه أمر لا يطاق .. لا أصدق أذنى !

- لابد أنه تعلمها من الفلاحين الملاعين .. حين .. حين انتهز خروج مولاى لرحلة الصيد .. وهرب .. أقصد خرج من القصر ..

وأخذ السلطان يضرب كفا بكف مرددا :

- لا أصدق .. لا أصدق !

- يستطيع مولاى أن يتأكد بنفسه .. إنه .. إنه يرددها الآن يا مولاى ..

- الآن !!

- وكل حين يا مولاى ..

- بشع .. هيا بنا ! ..

رقص قلب الوزير فرحا .. فقد تحقق له ما أراد .. وها هو السلطان يتقدمه بينما قدماه تدب على الأرض فى غيظ .. قاصدا جناح الأمير .. واشتدت فرحة الوزير عندما سمع صوت الأمير يردد أغنية الشعب .. يخفى الوزير سعادته :

- هل صدّقت وزيركم المخلص يا مولاى ؟

لم يلق السلطان إليه بالا .. بل واصل سيره .. دلف قاعة العزف والوزير يتبعه ..

لم يشعر بهما الأمير فى بادىء الأمر .. حيث كان فى أوج اندماجه .. تبادل السلطان والوزير نظرة تعجب .. ليصيح السلطان بصوت كالرعد :

- كف !!

يكف الأمير عن الغناء والعزف فجأة . يعجّل بالوقوف .. كم أدهشته زيارة والده وصياحه .. إلاّ أنه رحّب قائلا فى رقة :

- إنها أول مرة أتشرف فيها بـ ..

قاطعه السلطان مواصلا صياحه :

- ما هذه الأغنية الكئيبة التى تغنيها ؟ !

أجاب الأمير مدافعاً :

- إنها ليست كئيبة يا مولاى .. بل إنها رائعة ! ..

تطاير الشرر من عينى السلطان .. ليتدخل الوزير قائلا للأمير :

- إنها أغنية الشعب .. فكيف تكون رائعة ؟

- بل أكثر من رائعة .. لأنها أغنية الشعب .

اشتد غضب السلطان وزمجر :

- لا لا .. لا شك أن الموسيقىّ قد اتخذ أسلوبا خاطئاً فى تعليمه الموسيقى..

وقبل أن ينطق الوزير قال السلطان فى نبرة آمرة :

- استدعى هذا المخبول حالا .. سألقنه درسا لن ينساه ..

تأهب الأمير ليدافع عن أستاذه .. إلاّ أن السلطان غادر القاعة وهرول الوزير من خلفه تاركين الأمير يعانى من حيرته وذهوله .. وقلقه الشديد على أستاذه الذى سيعاقبه السلطان دون أن يقترف إثما !

(١٦)

وجاء الموسيقىُّ على عجل .. ومثُل بين يدىّ السلطان .. وقبل أن يبادر بالتحية السلطانية .. قال له السلطان فى غلظة :

- هل جننت أيها الموسيقىّ الأبله ؟ !

تعجب الموسيقىّ لهذه اللهجة التى يخاطبه بها السلطان .. فقال فى عزّة :

- لست مجنونا ولا أبلها يا مولاى ..

- كيف لا تكون كذلك .. وقد اتخذت أسلوبا خاطئاً فى تعليم الأمير ؟!

- لقد دربته على أصول العزف .. عندما تأكدت من موهبته .. و ..

فرغ صبر السلطان فقاطع الموسيقىّ قائلا :

- اسمع أيها الموسيقىّ .. إنك متهم بتعليم الأمير الموسيقى الحزينة ..

لاحت الدهشة فى ملامح الموسيقىّ ! !

- إن الموسيقىّ أو أى فنان يعبّر عن مشاعره .. سواء أكان سعيدا أم حزينا.. ولا دخل لى فى ذلك .. ثم ..

قاطعه السلطان فى قسوة :

- عليك أن تُبدى اعتذارك عن هذا الخطأ الكبير . بل هذه المصيبة .. ويجب أن تصحح الخطأ وتمحو آثاره .. بأن تعود لتلقنه موسيقى الأمراء .. المرحة .. السعيدة .

اتسعت عينا الموسيقىّ دهشة ثم قال فى كبرياء :

- مولاى .. إننى لم أرتكب خطأ لأصححه .. وليعلم مولاى أن الموسيقى للموهوبين أمير كان أم خفير .. والفنان يعبّر عن مشاعره .. وإنى كنت مسئولاً عن تدريبه .. وليس عن أحاسيسه .

تهيج السلطان لجرأة الموسيقىّ :

- ما هذا الكلام الفارغ الذى أسمعه ! .. وكأننى أسمع كلام الحكيم !

- معذرة يا مولاى .. فما نطقت غير الحق ..

لم يستطع السلطان أن يجارى الموسيقىّ ولم يحتمل جرأته عندئذ نفخ صدره وأمال رأسه .. ورفع صوته مناديا الحراس .. وعندما جاءوا إليه يهرولون ويتخبطون .. صاح السلطان :

- إحملوا هذا الرجل وأرموه خارج القصر ..

وحمل الحراس الموسيقىّ الشهير غير عابئين بصياحه واستنكاره وفىْ هذه المرة لم يستطع الوزير أن يدارى ابتسامته .. وكم تشتد لوعة الأمير حين علم بما جرى لأستاذه الموسيقىّ ..

لم ينس الأهالى المغنىّ الغريب .. وكانوا دائما يتحاكون عنه ويرددون أغانيه .. ويتذكرون واقعة القبض عليه .. وكم تشوقوا لمعرفة مصيره .. أو الوقوف على جنايته .. حتى يجرّه الحراس إلى قصر السلطان ..

ويمضى الأمير فى كتابة أشعاره وترديد أغانيه الشجية بين دموعه .. ولم تستطع الدادة ولا « فيروز » أن يزيلا أحزانه وشجونه .. ويكفكفان دموعه .. إلا أنهما لم يقنطا من تهدئته وإعادته لسكينته .

وكان الأمير يتردد على الحكيم كلما صادفته فكرة أكبر من عقله .. وكلما فاضت عليه أحزانه .. وقد عهده الحكيم بنصائحه .. وتهيئته لأمر بالغ الأهمية !

لم يسكت الوزير عن شحن السلطان وإيقاد نار غضبه على ابنه .. أحب الناس إلى قلبه .. وما زال به يعلن عن مخاوفه من أجل الأمير .. ذلك الذى لا يهدأ عن ترديد الأغانى التى تئن لها القلوب .. ليفرغ صبر السلطان وما يلبث أن يستدعيه .. وعندما يقف الأمير أمامه .. لا يلحظ السلطان آثار الدموع فى عينيه والشحوب الذى غشى وجهه .. وإنما يمضى فى صياحه :

- أما زلت تردد أغنية الشعب .. وتلك الأغانى الحزينة ؟ ..

قال الأمير فى حيرة :

- إننى لا أقصد ذلك يا مولاى ..

دهش السلطان :

- إذن .. فلتقصد أن تغنى أغانى شعبية ! !

نظر إليه الأمير مليا ..

- هيا يا « نور الدين » .. غن أغانٍ سعيدة ..

ثم شجعه قائلا فى لين :

- هيا يا بنى ..

ثم نادى السلطان على الحراس :

- عجّلوا بعود الأمير .. سيعزف لنا أنغاما مرحة .. ويغنى أغانى الأمراء السعيدة ..

غاب الحراس قليلا وجاءوا يهرولون بالعود .. ناوله أحدهم للأمير بين قهقهات السلطان ..

- سيطربنا الأمير بأسعد الأغانى والألحان ..

ثم التفت إلى الأمير :

- هيا يا سمو الأمير .. هيا يا ابن السلطان ..

أمسك الأمير بعوده كما يجب .. عزف المقدمة الموسيقية .. ثم خرج صوته حزينا ..

- كأنك تبكى : أقول لك لحنا سعيداً . وأنشودة سعيدة ..

قال الأمير فى صدق :

- لا أستطيع يا مولاى .. لا أستطيع ..

مضى السلطان يحثه :

- حاول يا « نور الدين » .. حاول يا سمو الأمير ..

وحاول الأمير كطلب السلطان .. كرر محاولاته .. خرجت النغمات أشد حزنا.. فشل الأمير أن يرضى والده الذى ثار ثورة عارمة .. وكان زعيقه يرج جنبات القاعة الكبيرة .. وكان الوزير فى قمة سعادته .. على عكس الدادة « وفيروز » وكل الخدم الذين اشتد قلقهم على الأمير .. وكان قرار السلطان بأن يسكت الأمير .. وان تسكت آلاته الموسيقية .. فلا غناء ولا أنغام .. وانسلّ الأمير من القاعة .. وذهب إلى جناحه محزون الفؤاد .. وجدت الدموع طريقها فتقطرت من عينيه .. وسالت على خده كحبات اللؤلؤ .. وأنفق ليله أسيفا لم يذق النوم إلا غراراً !

وفى الصباح سعى حيث قاعة العزف .. جعل يتأمل الآلات .. شعر كأنها حزينة من أجله .. أخال أنها تئن وتبكى مثله .. بكى معها .. لمسها بأنامله الرقيقة .. ربت عليها فى حنان .. وقضى أياما ذاهلا واجما مشرد اللب .. لا يستقر له قرار .. ولا يهدأ له بال .

وحين سكت الأمير عن الغناء .. وسكتت الآلات الموسيقية عن الأنغام والألحان .. فلم يسكت قلم الأمير .. بل ظل يسجل ما يتردد فى حناياه شعرا رائعا ! .. وكان يختلف إلى حديقة القصر يبث الورد شكواه .. ويهمس للزهر عن حاله وبلواه .. ثم يفرغ الشعر بينما عيناه تسكب الدموع .

(١٧)

وفى إحدى زياراته للحديقة .. جلس جلسته المعهودة .. فى ظلال سنديانته الحبيبة .. جعل ينعى حظه ويشكو همه إلى نفسه .. وكانت عيناه تسحّان على وجهه دموعا غزارا .. وبينما كان على ذلك الحال يُفاجأ بمن يُقرئه السلام :

- السلام عليكم ..

رفع الأمير رأسه .. جال طرفه من حوله .. رأى شيخا يخرج من بين الزهور.. أخذه العجب .. هبّ واقفا باحترام .. تقدم الشيخ وصافح الأمير فى شوق بين ابتسامته العذبة .. تأمل الأمير وجهه النضر المضىء .. عيناه يشع منهما الذكاء .. لحيته بيضاء .. وغطاء رأسه أبيض وعباءته بيضاء .. والمسبحة فى يده بيضاء ! .. كأنه ملاك هبط من السماء ! .. لم ير الأمير ملاكا .. ولكن جاء ذكره فى أحاديث الدادة وحكاياتها .. لم يرهبه .. بل شعر

نحوه بالألفة والود كأنما يعرفه من قبل . . هش قلب الأمير وبش وجهه . .

افترش الشيخ الأرض . . جذب يد الأمير برفق . . استجاب الأمير وجلس بجانبه . . وما زال يتأمل وجهه الصبوح المشرق . . انبرى الشيخ يحدثه حديثا لينا هادئا أثلج صدره . . وكم كانت دهشة الأمير حين حدثه الشيخ عما يحاك فى نفسه . . مايدور فى رأسه . . وما يجرى فى القصر . . مصدر حيرته . . وسبب شجونه ومرارته . . ومنتهى أمله ؛ ليقع الأمير فى حيرة . . فكر فى محاورته . . لعب لسانه فى فمه . . وجد الشيخ يقول بصوت يشيع فيه الحنان :

ـ لا تضيع الوقت . . ستعرفنى يوما .

هتف الأمير فى لهفة :

ـ متى يا سيدى ؟

ـ بعد بلوغ المراد . .

ـ ومتى . . متى أبلغ المراد ؟

ـ الصبر يا أمير . . غدا ينكشف المستور . . وإن غدا لناظره قريب . .

ـ لكن . .

ـ دع القلق . . فالقلق من شيمة الضعفاء . . والسعى سبيل الأقوياء . . والصبر . . الصبر أبو الأبطال . . والبطولة تتحقق بالكفاح والنضال . .

انبسطت أسارير الأمير وقال بصوت مبتهج تشيع فيه الغبطة وتفيض منه البهجة ولا يخلو من العزم واللهفة :

ـ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين المناضلين . . هات ما عندك ؟

اتسعت ابتسامة الشيخ فبانت أسنانه اللولية البيضاء ؛

وقال فى بساطة :

ـ ستخرج من القصر . . وتنال المراد . . ويتحقق الأمل . .

لمعت عينا الأمير . . رقص قلبه . . كاد أن يقهقه من فرط السرور . . رأى الشيخ يتلفت فى حذر . . ووجده يدس يده فى جيبه ويخرجها بحرص .. دار ببصره دورة كاملة . . لوّح للأمير بزجاجة صغيرة . . تعجب الأمير . .

ـ ما هذا يا سيدى ؟

لوح للأمير بزجاجة صغيرة ... تعجب الأمير

- إنها زجاجة !

- ماذا تحوى ؟

- بها سائل عجيب ..

- عجيب ! .. كيف ؟ !

- كيف لا يكون عجيبا .. ومن يشرب منه يتحول إلى قزم .. ؟

- قزم ؟ !!

- لا ترفع صوتك يا عزيزى .. فللحيطان آذان .. كما قال الحكماء .. واستطرد الشيخ :

- ومن يشرب منه تتبدل ملامحه ..

- ويصبح دميما ؟!

- كلا .. كما أنه لا يؤثر فى الأصوات .. ولا فى المشاعر والإحساس .. ولا تخف سيظل قلبك عامرا بحب الناس .. ما قولك ؟

- إنه لسائل عجيب حقا !

وأردف كأنما يحدث نفسه :

- إذا شربته تتبدل ملامحى وأبدو قزما ! .. و .. وأستطيع مغادرة القصر فى سهولة ويسر .. ! .. فأغافل الحراس .. يعيننى حجمى الصغير .. وفى الخارج وبين الناس .. أستطيع أن أغنى كما يحلو لى .. وأذهب إلى أى مكان .. وألفّ الدنيا وأجول فى البلاد كحكيم الزمان .. أطرب الناس بصوتى.. وأدخل السرور فى قلوبهم بألحانى ..

وأضاف الشيخ :

- ويكون اسمك « سعدون » المغنواتى ..

ضحك الأمير من أعماقه :

- « سعدون » .. إنه اسم لطيف .. !

- اسم على مسمى فأنت « سعدون » سعيد .. تجلب السعادة للآخرين .. فيزول الشر .. وينمحى الكِبر .. ويذهب الغرور بلا رجعة .. وتنزوى الخيلاء بلا عودة .. وتهبط الصدور .. وتستقيم الأعناق .. فلا تميل إلى الوراء .. وتطأطىء الرءوس .. وينخفض ريش الطاووس .. وتحلّ البساطة وتحطّ الوداعة .. وتمضى الحياة سهلة .. رغدة مزدهرة .

- يا لها من حياة !

وأضاف الشيخ :

- وبعدئذ .. يعود « سعدون » أميرا كما كان ..

- ويختفى « سعدون » ؟ !

- بل يحيا فى أعماق القلوب .. ولكن .. هناك شرط ..

- موافق يا سيدى ..

- دون أن تعرفه ؟

- مهما كان فإنى موافق ..

- أحييك يا أمير البلاد .. هكذا يكون البطل المغوار .. تهون أمامه الصعاب .. ويركب الأهوال .. من أجل بلوغ المنال .

- وما الشرط ؟

- رضا السلطان .. فرضا الله من رضا الوالدين .. ولهذا الرضا دليل .

- وما هذا الدليل ؟

- لمسة من يد السلطان على كتفك ..

- فقط .. ؟

- أو يعانقك ..

أطرق الأمير إطراقة طويلة .. لعله كان يعيش بخياله المستقبل لسعيد .. حين يخرج إلى الناس ويستكمل رحلة غنائه وألحانه .. وينشر فنه .. خطر بباله استفسار .. أو أنه أراد أن يثنى على الشيخ .. وكم كان ذهوله حين لم يجده فى مكانه .. تلفت من حوله .. قام يجرى هنا .. وهناك . وهنا لك .. كأنه ذاب فى الفضاء .. وجعل ينادى :

- أيها الشيخ .. أيها الشيخ !!

عاد يحدث نفسه :

- لكأنه ملاك .. جاء فجأة كأنما هبط من السماء .. واختفى فجأة كأنما طار إليها !!

ثم نظر فى يده .. وهنّأ نفسه وأغبطها بزجاجته العجيبة .. الغالية .. والتى تعدل ماء الحياة لديه .. وما لبث أن دسها فى جيبه وانطلق إلى حيث الدادة وصديقته العزيزة « فيروز » .

(١٨)

- ما شاء الله !! .. الأمير طَلْق المحيّا ! .. ويضحك من أعماقه ويملء فيه!!.. ما بين غمضة عين وانتباهتها .. يغير الله من حال إلى حال .. ! ما السبب يا ترى !! .. فإذا عُرف السبب

بطل العجب .. تساءلت الدادة .. وتساءلت فيروز .. وتساءل الخدم .. لم يُجب الأمير فقد وعد الشيخ بكتم السر أيًا كان السبب فالسعادة تلوح فى كل الوجوه .. والضحكات الخافتة تتبادل .. وفى القلوب نشوة .. فقد طال حزن الأمير ..

رئيس الحرس يتعجب .. ما الخبر؟ ! .. وما سبب سعادة الأمير المفاجئة هذه بعيداً عن بُغية الوزير . وبعيداً عن الخطة ؟ .. بل هذا يفسدها .. وماذا يقول للوزير ؟ .. أيقول سعادة فجائية هبطت على الأمير من حيث لا يدرى ! .. لكن متى .. وأين .. ولِمَ ؟؟.. أسئلة بلا إجابات .. ماذا يقول له ؟ .. قطعاً سيغضب ويثور وتتأثر العلاقة بينهما .. إنه غارق فى نعيم الوزير وهباته .. ماذا يقول لسيده ؟ .. ليس إلا أن يتكتم الخبر .. ويهدد الحراس أن تلوكه ألسنتهم .. نعم .. فلا بديل عن ذلك .

دخل الأمير حجرة العزف .. جعل يعانق آلاته الموسيقية رفقاءه وأحباءه .. ضحك كأنما ينبؤها بسعادته ..

وفى ذلك اليوم المشهود فى حياة الأمير زار الحكيم فى صومعته .. وجالس والده وأخويه .. تعجبوا جميعاً من أمره .. وسأله السلطان عن سر سعادته .. وكل ما نطقه الأمير :

- إننى سعيد برؤية مولاى وأخويىّ بخير .

طابت نفس السلطان .. ليضحك فى صفاء .. وكأن كابوسا ثقيلا انزاح عن كاهله .. وكل فترة يربت على كتفه ويطبع على خده قبلة حنونه .. بينما الأمير يخفى عبراته حتى لا يثير ريبته .. ثم يعانق الأمير أخويه فى شوق وحنين .

وفى تلك الليلة .. ينام كل من بالقصر .. وكان أسعد النائمين السلطان .. والدادة و « فيروز » .. وكانت السعادة من أجل الأمير الذى انقلب حاله من الحزن العميق .. إلى السرور والانشراح .. نامت أعين الجميع إلا عينى الأمير فقد ظل ساهرا .. مشغولا بحزم متاعه .. واختار الكمان ليأخذها معه .. ثم ذهب حيث تنام الدادة و « فيروز » كانتا غارقتين فى النوم .. تأمل وجهيهما اللذين تحوطهما الطيبة ويغشاهما الهدوء والسكينة .. ابتسمت الدادة لعلها كانت تعيش أحلاما سعيدة .. انحنى على الدادة ومسّ خدها بقبلة خفيفة .. ودّعهما بنظرة طويلة وعينين دامعتين . عاد إلى جناحه .. أخرج زجاجته الصغيرة .. أمله ! .. خطا إلى المرآة .. القلق يساوره .. داعبه الأمل فطغى على قلقه .. ألقى على وجهه نظرة أخيرة .. الدموع تسحّ من عينيه .. فتح الزجاجة .. تأملها .. دق قلبه رهبة .. تذكر كلمات الشيخ الطيب

.. تذكر أيضاً العالم خارج القصر .. ارتعشت جفونه .. رفع الزجاجة إلى شفتيه ولم يلبث أن أفرغ محتواها فى جوفه .. ألقى نظرة على المرآة :

- يا إلهى .. لقد تبدلت ملامحى وصغرت أعضائى .. وأصبحت قزما .. !!

ابتسم ابتسامة عريضة .. وسرعان ما حمل متاعه وكمانه .. غادر جناحه .. مشى على أطراف أصابعه حتى باب القصر المؤدى إلى الحديقة .. ودّع الحديقة.. وقف يتأمل السنديانه الحبيبة .. مسح دموعه .. تلفت يمنة ويسرة .. خطا فى حذر .. وقف .. تلفت من حوله .. واصل سيره .. أصبح بالقرب من حارس البوابة الجانبية .. كان الحارس مرتكنا فى غرفته الخشبية .. سمع غطيطه .. إنه نائم .. يا للحظ .. ! خفّت رهبته .. واصل خطواته الحذرة حتى خرج من باب القصر .. ابتعد .. وقف .. استدار ناحية القصر .. ألقى عليه نظرة وداع.. قطرت الدموع من عينيه .. سمع صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر .. همس فى تفاؤل :

- سأعود بإذن الله ...

أعطى ظهره للقصر .. وخطا أول خطوة فى طريق رحلته التى لا يعرف منتهاها .. ويقول فى صوت عميق :

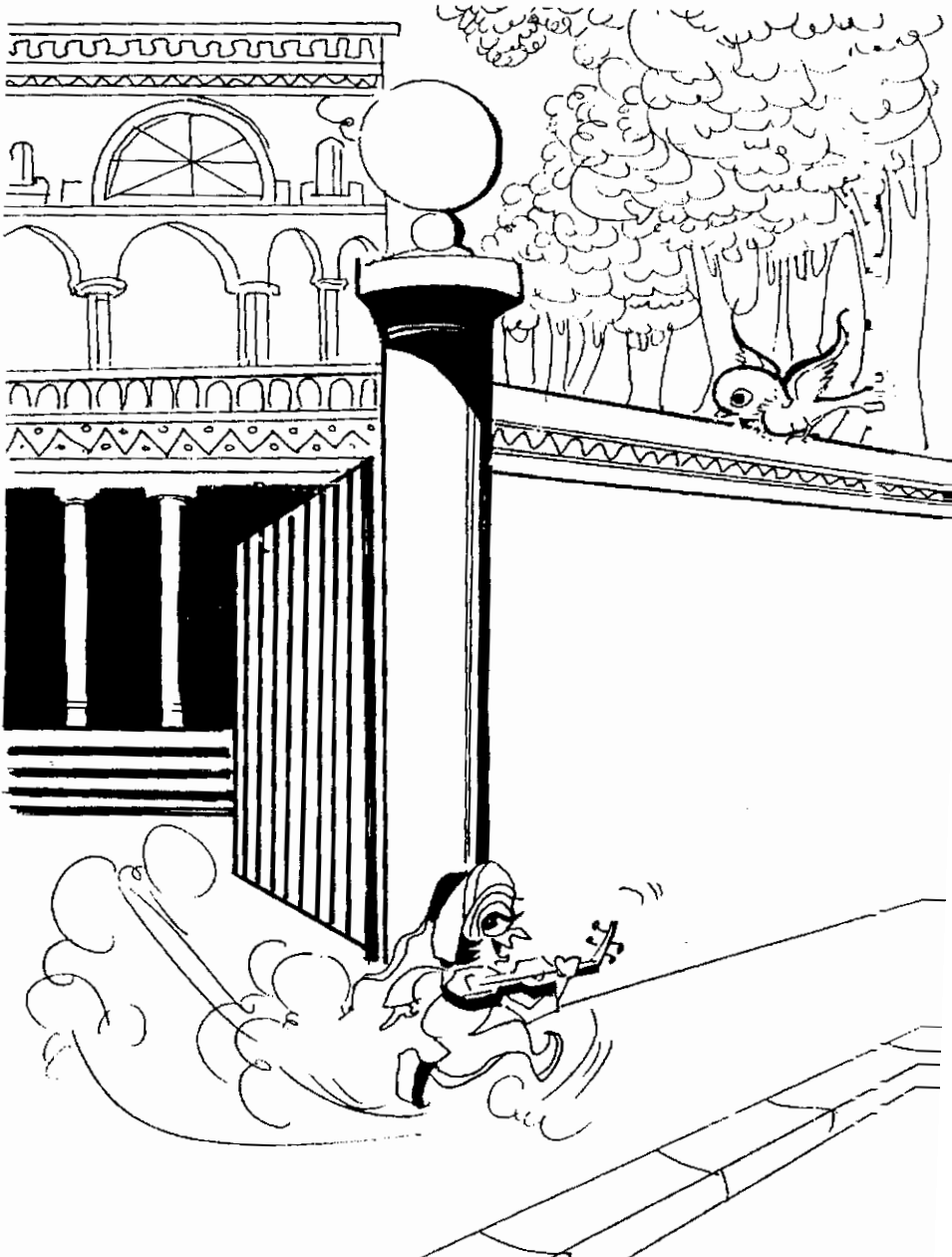

أعطى ظهره للقصر وخطا أول خطوة فى طريق رحلته

- توكلت على الله ..

جدّ فى السير .. يملأ صدره بنسيم الصباح المنعش .. تأتى إلى سمعه أصوات اشتد شوقه إلى سماعها .. خرير المياه وحفيف الأشجار .. رشقشقة عصفور .. لم يلتفت إلى الوراء .. هرول فى مشيته .. يرى عصافير « الكنارى » تنطلق من أقفاصها سعيدة .. تذكر والده السلطان .. إنه يحبه من أعماقه .. ويعزّ عليه أن يبتعد عنه .. ضحك من بين دموعه .. وكان العزم يملأ صدره .. ابتعد مسافة كبيرة عن قصر السلطان .. على مرمى بصره .. رأى أبنية إحدى القرى.. وكانت الشمس ترمى بأول أشعتها فى صفحة السماء .. وقد بدأ الفلاحون فى الخروج إلى غيطانهم لمباشرة أعمالهم .

صحت الدادة قبيل طلوع الشمس كعادتها منذ أن أُلحقت بقصر السلطان .. أسرعت بالذهاب إلى جناح الأمير لتطمئن عليه .. الأمير ليس بفراشه .. ! .. دبّ قلبها .. لعله استيقظ مبكرا .. أو لعله لم ينم من فرط سعادته .. قصدت قاعة العزف .. لعله يعالج إحدى قصائده .. أو يكتب النوتة الموسيقية لإحدى الأغانى .. ليس بالقاعة !! .. ألقت نظرة إلى الآلات الموسيقية .. الكمان ليس بينها ! .. هدأت نوعا ..

- إنه فى حديقة القصر ..

قصدت الحديقة .. فتّشت فى كل جوانبها .. الرهبة تملأ قلبها .. عادت تفتش ثانية .. أصابها الجزع .. فكرت أن تذهب إلى حراس البوابات لتسألهم.. ولكنها استبعدت فكرة خروجه من القصر .. وإلا كان استشارها كما يستشيرها فى كل شىء .. لقد كان يضحك فى سعادة بالغة .. وكان يتقافز هنا وهناك .. بل كان يطير مثل العصفور الصغير .. لا بد أنه ذهب إلى مكان ما بالقصر .. أو .. أو يكون فى جناح السلطان .. إلا أنها نفت الأخيرة فالسلطان يصحو من نومه متأخرا .. اتجهت ناحية البوابة الداخلية للقصر .. قد يكون عاد إلى جناحه.. ألقت نظرة على قفاص عصافير « الكنارى » .. دخلت جناح الأمير.. بحثت عنه .. لم تجده !! . تذكرت :

- أنه بلا شك فى ضيافة حكيم الزمان ..

وعادت تقول فى نفسها :

- لكنه لم يعتد أن يصحب الكمان .. فهو لا يغنى لدى الحكيم .

ومع ذلك قطعت الشك باليقين وذهبت إلى الحكيم .. وأيضاً أكّد الحكيم عدم رؤيته .. تفزعت وروع قلبها .. كاد أن يغمى عليها

أشفق الحكيم عليها .. حدثها حديثا لينا بقصد طمأنتها .. عادت إلى القصر .. التقت بها « فيروز » عند المدخل .. سألتها « فيروز » عن الأمير .. اشتد ذعر الدادة .. وفزعت «فيروز» حين علمت أن أمها قلبت القصر بحثا عنه .. لحظ رئيس الحرس أن هناك أمراً ! .. سعى إليهما .. بادرته الدادة بنبأ اختفاء الأمير من القصر ! ..

استغرب رئيس الحرس .. وما لبث أن استدعى أفراده .. وأمرهم بالبحث عن الأمير فى كل شبر .. وانتشر الحراس فى كل مكان بالقصر .. تعبوا ولم يعثر أحدهم على الأمير ! .. سألوا حراس البوابات .. كلٌ أيقن بأنه لم يخرج من القصر ! .. اشتدت حيرتهم .. فأين الأمير ؟ !!

المسئولية كبيرة للغاية .. اختفاء الأمير كارثة كبرى .. عجّل رئيس الحرس باستدعاء الوزير لأمر هام فى غاية الخطورة .. ويهرول الوزير إلى القصر .. علم الخبر .. اختلط عليه الأمر .. فكل ما يهمه ليس اختفاء الأمير فى حد ذاته..!.. بل الوقوف على سبب الاختفاء ! .. وبّخ رئيس الحرس وكافة الحراس .. اتهمهم بالغفلة .. واتهم رئيسهم بالتهاون وإهمال الرقابة .. هددهم وتوعدهم .. وأمر بإيقاظ السلطان .. يذهل السلطان لهذا الخبر

للشئوم .. كيف يختفى ابن السلطان ؟ ! .. وأين هو الآن ؟ ! ثار السلطان وفار .. زعق وصاح وزمجر عاليا .. ! .. أصدر أمره بالبحث عن الأمير فى شتى أنحاء البلاد .. وأضاف الوزير .. ستكلفا القلق والاهتمام .. بضرورة العثور عليه وإحضاره فى سرعة البرق حتى يطمئن قلب السلطان .. ولم تمض لحظات وهبّت الفرسان تنهب الأرض تسابق الرياح وتثير الغبار ..

(١٩)

صحت القرية فى الصباح .. خرج الأولاد من المنازل .. التقوا ليباشروا ألعابهم .. أتى إلى أسماعهم صوت كمان .. ! .. تبادلوا نظرات الدهشة . اتفقت عيونهم .. انطلقت سيقانهم حيث مصدر الصوت الغريب ! .. توقفوا عن قرب .. قزم .. !! قزم يلعب على الآلة ويغنى فى سعادة !! .. تبادلوا نظرة تشجيع .. دنوا منه أكثر .. التفوا حوله .. لمسوه بأيديهم إلا أحدهم .. وقف يتأمله .. جذبوا يده ..ضحك لهم .. وما زال يغنى ويعزف على الكمان .. جذبوا ملبسه .. تجاذبوه بينهم .. تماسك .. ما زالوا يتجاذبونه بين صيحاتهم .. ترنح وتمايل .. شد أحدهم الكمان .. تمسّك به وأحكم قبضته عليه .. نزعه آخر من بين يديه .. تناولوه بينهم .. انقسموا فريقين فريقٌ يتجاذب القزم .. والفريق الآخر

قزم يعزف على الآله ... ويغنى فى سعادة

تجاذب الكمان .. انطرح القزم أرضا .. جرى الولد الذى كان يتأمله .. كان فى سنهم .. ولكنه استطاع إبعادهم !! وتخليصه من بين أياديهم الصغيرة .. العابثة .. وبنفس الحماس اندفع إلى الآخرين .. تمكن من انتزاع الكمان .. وعاد إلى القزم المسكين .. نفض التراب عن وجهه وملابسه .. كان الأهالى قد توافدوا لمشاهدة القزم الغريب .. فقد طار خبره فى أنحاء القرية ! .. صَحِبَهُ الطفل اشهم ذو المروءة .. شبك يده بيده وشقّا الزحام .. الجميع يتأملون القزم وقد تطايرت ابتساماتهم .. وفى البيت استقبله أهل الطفل استقبالا كريما .. طيّبوا خاطره واحتفوا به وأكرموا وفادته ..

سكن روع القزم وعاد البهاء إلى وجهه .. سمعوا حكايته : إنه غريب من بلاد بعيدة .. يهوى الأغانى والألحان .. ويرزق منها طعامه وكساءه .. وإنه يجول فى البلاد سواحا .. يُطرب المستمعين ويحيى الليالى والأفراح .. واسمه « سعدون المغنواتى » ..

وفى ليلته الأولى خارج القصر .. لم يحرم « سعدون » مضيفيه الذين تواكبوا لسماع صوته وألحانه .. كم طربوا لها .. وسرعان ما أحبوه كما أحبهم.. وعدّ ما صنعوه من أجله معروفا لن ينساه .. وعلى الأخص صديقه «سعد » الذى أنقذه من أيادى الأطفال .. وفى غمرة سعادته نسى « سعدون » ما صنعه الأطفال .. وتمسكت

به الأسرة كرغبة « سعد » .. ليعيش معهم .. وَقبل « سعدون » وشكرهم . وبات أول لياليه خارج القصر .. وقد زارته الأحلام السعيدة !

قلب الفرسان البلاد .. جابوا المدن والقرى .. فتشوا الميادين والشوارع .. جاسوا فى الحارات والأزقة .. ساءلوا الناس عن الأمير .. بلا جدوى .. فأحدهم لا يعرف الأمير .

تعبت الجياد وتصببت عرقا .. يئس الفرسان .. جزع رئيسهم .. فماذا يقول للوزير ؟ .. وكيف يواجه السلطان ؟ ! .. تملّك الخوف قلبه .. واضطر لقيادتهم عائدين خائبين .

صاح الوزير .. وزعق السلطان .. صُمّت آذان الحراس .. هاج السلطان .. فإلى أين ذهب أعز ما لديه ؟ أين اختفى « نور الدين » ؟ ! .. غشى الحزن أرجاء القصر المنيف .. بكت الدادة ربيبها الأمير .. وبكته « فيروز » أحرّ البكاء .. فرّ النوم .. تراءت الحيرة على الوجوه .. أين الأمير الصغير ؟ ! .. أين ؟ .. أين ؟ .. أين ؟ !!! خطب كبير حلّ بالقصر السلطانى .. ولا قرار إلا البحث .. ثم البحث .. ثم البحث !!

فى القرية ضيف عجيب .. مغنّ يحمل كمانا .. آلة غريبة كصاحبها .. فقد عاصروا الربابة والناى والمزمار ! .. تشوقوا إلى

لمغنى العجيب وكمانه الغريب.. أتوا إلى دار « أبى سعد » .. طلبوا « سعدون » خرج إليهم .. شدا لهم .. عزف على كمانه .. أطربهم وأمتعهم .. انكبّ الأهالى .. ضاق بهم صحن الدار .. زحفوا إلى « الوسعاية » .. صدح البلبل .. وانطلقت الزغاريد تعلن عن الفرحة ..

الزغاريد ! .. نغمة جديدة على مسمع « سعدون » تطلقها حناجر النساء..!.. والرجال والشباب يطلبون الإعادة والتكرار .. حفل سمر لأول مرة فى عُمر القرية .. الجو يملؤه الحبور والسرور والضحكات .. لحن السعادة الفياضة ..

توالت الأفراح .. كل ليلة حفل فى « الوسعاية » .. حيث يجتمع أهالى القرية .. « سعدون » يدرب « سعد » على الكمان حتى أتقنه .. لم يستأثر «سعدون » بالعزف والغناء .. بل كوّنا ثنائيا .. فيعزف « سعد » ، ويغنى «سعدون » ! .. وكل من ابتغى ذلك .. لم يبخل « سعدون » أن يعلّم أقرانه ما تعلمه من فن الموسيقى والغناء .

أظلمت الأحزان جو القصر لغياب الأمير .. فكل صباح تنطلق فرقة الفرسان لتفتش عن الأمير فى كافة البلاد والأنحاء ويعودون فى المساء وجلين .

فى قصر السلطان كآبة ليس مصدرها الناى ولا الآلات الموسيقية .. ولا غناء الأمير ! .. الأحزان فى هذه المرة من أجل الأمير .. إلا الوزير وذيله رئيس الحرس فقد أفعمت الفرحة قلبيهما ! .. وكانت تنطلق ضحكاتهما كلما خلا صاحب بصاحبه .. وحين يتحاوران عن انشغال السلطان بغياب الأمير .. تاركا أمور الدولة للوزير .. يسرق وينهب ويبغى ويطغى كما يحلو له .. يعاونه رئيس الحرس بشراسته وسطوته .. والاثنان نهمان شرهان .. لا يشبعان .. وكانت تمضى الأحداث .. وحكيم الزمان يراقب من بعيد .. فى صمت شديد .

طال غياب الأمير .. لم تصب الدادة وابنتها من الطعام إلا ما يسد رمقهما حزنا وكمدا على الأمير .. افتقد السلطان شهيته للحياة .. أصيب بالصمت .. فلم يقو على الصياح والزعيق .. ولم يعد ينفخ صدره .. وانحنى عنقه ورأسه .. وكاهله ! .. ظل على حاله أياما .. لا يطأ النوم عينيه .. ولا تُروِّح عنه كلمات المواساة .. ليقع فريسة للهم والكمد .. ولم يلبث أن هاجمت العلة جسده .. فلزم فراشه .. وكان الوزير لا يفارقه ماضيا فى ريائه .

ذاع صيت « سعدون » فى القرى المجاورة .. فكان يُدْعى لإحياء الليالى وإقامة الأفراح .. وانتشر خبره فى المدن .. بل وفى كل البلاد .. وكان الناس يستقبلونه وفرقته استقبالا عظيما .. يتزاحمون ويتوافدون لرؤية الفنان القزم .. لقد لفت الأنظار فى كل مكان وبلغت شهرته الآفاق .. وعندئذ تأمل الأمير حاله .. وما بلغه وما حققه.. تذكر أستاذه الموسيقىّ .. وتذكر صديقه حكيم الزمان . ابتسم .. ضحك .. تذكر والده وأخويه .. وتذكر مربيته .. وصديقته .. دمعت عيناه .. بكى من شدة اللهفة واللوعة .

(٢٠)

توافد كبار الأطباء على السلطان .. تنوعت الأدوية واختلفت صنوف العلاج.. وكانت حالة السلطان تسوء يوما بعد يوم .. وقد حزنت شعوب المملكة على السلطان وابنه الأمير « نور الدين » .. وكانت سعادة الوزير لا توصف .. وكان يتمنى ألا يعود الأمير الذى يهدده رغم صغر سنه .. ورغم غيابه ! .. كما تمنى أن يدرك السلطان الموت .. فعندئذ سيكون وصيا على الأمير « جمال الدين» ولى العهد .. الذى لا يعرف سوى اللهو واللعب .. أى أنه سيصبح السلطان الحقيقى .. وتكون مقاليد الدولة فى إمرته وزمام

الحكم فى يده . وبعدئذ يتيسر له الإطاحة بأبناء السلطان واحدا بعد الآخر .. لينصّب نفسه سلطانا على البلاد .. وقد وعد رئيس الحرس بأن يتخذه وزيرا .. هكذا فكر الوزير .. وهكذا كانت مؤامرته .. وهكذا كانت أمنيته .. وهذا ما اتفق عليه مع رئيس الحرس ذراعه الأيمن .

وفقا للخطة .. قلّ اهتمام الوزير فى بحثه عن الأمير الغائب .. وتبعا لذلك.. تهاون رئيس الحرس وأهمل واجبه نحو الأمير والقصر .. إلا أن فرقة الفرسان الأوفياء للسلطان والمحبين للأمير .. كانوا ينقّبون باهتمام وحماس .. آملين فى العثور على الأمير .. فيعود للقصر وينجو السلطان وتستقر أحوال البلاد .. لقد بحثوا فى كل جمع وكل زحام .. وعلى الأخص فى حفلات السمر والغناء .. وقد سمعوا صوت « سعدون » ذات مرة فهتف أحدهم :

- إنه صوت الأمير .. !

تسابقوا نحو الصوت يحوطهم الأمل .. وعندما يلتقون بالمغنى القزم يصابون بالخيبة واليأس .. ويفر الأمل من صدورهم ليحل القنوط .. وبالطبع كان يعرف « سعدون » عمن يبحثون .

وفى الليل عندما ينفرد « سعدون » مع نفسه .. كان يفكر فى الدادة وصديقته والحكيم ووالده السلطان وأخويه « جمال الدين » و« صلاح الدين » .. تذكر آلاته الموسيقية الحبيبة إلى نفسه .. وحديقة القصر .. وشجرة السنديان .. لكم اشتد شوقه إليهم واشتد التياعه نحوهم .

وقد لحظ « سعد » ما يعتريه من الوجوم .. سأله مرارا .. ويبرر « سعدون» بغير الحقيقة .. ولا يقتنع « سعد » .. إلا أنه كان يكتفى بالسكوت .. ولا يشأ أن يحاصر صديقه وضيفه .. ومعلمه !

لم تطق الدادة الصبر أكثر من ذلك فاصطحبت ابنتها وخرجتا من القصر للبحث عن الأمير .. لم يخافا الوزير ولا رئيس الحرس .. فقد استهانا بالحياة دون الأمير .. كانتا تَحملان فى قلبيهما أملاً كبيراً فى العثور على الأمير . سافرتا من قرية إلى قرية ومن مدينة إلى مدينة .. جابتا الشوارع والطرقات .. سَعَيَا إلى الجموع .. والزحام .. وحفلات الغناء .. وفى إحدى المرات أتى إلى سمعيهما صوت « سعدون » .. هتفتا فى صوت واحد :

- إنه صوت الأمير !!

تبادلتا ابتسامة رائعة .. هرولت الدادة وهرولت « فيروز » .. تسابقتا إلى حيث الجمع الكبير ! .. أخذتا تشقان جماهير المتفرجين فى لهفة ! .. وكان « سعدون » قد فرغ من وصلته الغنائية الأولى .. وقام وفرقته التماسا للراحة .. دخلوا إحدى القاعات .. وأغلق الباب دونهم .. كاد اليأس أن يزحف إلى قلبى الدادة و « فيروز » .. إلا أن الأولى تقدمت وطرقت الباب .. فتح أحدهم سألهما طلبهما فقالت الدادة :

- ليت أن نلتقى بالمغنى .

- تقصدان الأستاذ « سعدون » ؟

هتفتا معا فى دهشة :

- « سعدون » ؟ !!!

فبادرت الدادة وهزت رأسها فى إحباط :

- أجل .. هو .. الأستاذ « سعدون » ..

طلب منهما الانتظار لحظة .. غاب قليلا ثم عاد يدعوهما للدخول .. دخلت الدادة فى شىء من التردد والرهبة .. تبعتها « فيروز » .. لمحهما « سعدون ».. عرفهما ! .. التفت له « سعد » حين شهق وتبدلت ملامحه .. كاد أن يستفسره إلا أنه آثر الصمت .

اقتربت الدادة و « فيروز » .. قام إليهما « سعدون » .. كاد أن يقفز لعناقهما .. ولكنه تثبت .. صافحهما فى حرارة .. تعجبتا لرؤيتهما القزم العجيب .. كادت أن تصيح « فيروز » مستغربة فلم تر من قبل مخلوقا كهذا!!.. ابتسم لها « سعدون » فردّت عليه ابتسامته .. سألهما عن طلبهما فى تلطف .. تبادلتا نظرة دهشة .. إنه صوت الأمير .. فقالت الدادة فى يأس شديد :

- نود لقاء الأستاذ « سعدون » .

ثم تساءلت « فيروز » :

- أأنت الأستاذ « سعدون » ؟

- أجل ! ..

شكرته الدادة .. ثم قالت « لفيروز » فى يأس وتبرم :

- هيا بنا يا « فيروز » .

سألها « سعدون » :

- إلى أين يا سيدتى ؟

- إننا .. إننا ..

حان موعد الوصلة الثانية .. استأذنهما « سعدون » قائلا :

- انتظرانى هنا حتى أعود ..

- ولكن ..

قاطع « سعدون » الدادة قائلا فى رجاء :

- لن أتأخر ..

صمتت الدادة لحظة بينما كانت تتأمل تقاطيع وجهه .. ثم هزت رأسها دليل الموافقة .

جاء إلى سمعهما صوت « سعدون » .. وأنغام كمانه .. علقت « فيروز » .

- نفس كلمات الأغانى .. والأنغام هى هى .. إننى أحفظها عن ظهر قلب.. قالت الدادة فى قنوط :

- وما الفائدة يا « فيروز » .. فليس هو الأمير ..

صمتت « فيروز » ثم لمعت عيناها ..

- لعل « سعدون » التقى بالأمير .. فكيف حفظ أغانيه وألحانه ؟ ! ..

تأملت الدادة ملحوظة ابنتها .. صاحت فى فرحة :

- إنها لفتة ذكية !

ضحكت « فيروز » وقالت فى سذاجة :

- لقد تعلمت الذكاء من سمو الأمير ..

انتهى « سعدون » من الغناء .. واعتذر عن الاستمرار لإحساسه بالإرهاق ..

عجّل بالذهاب إلى ضيفتيه .. جلس معهما .. سمع قصتهما .. كان يتأملهما فى شوق وقد نجح فى كبت مشاعره .

وعلم ما ألمّ بوالده .. وما وصل إليه حاله حزنا عليه .. كما علم بتخلّيه عن غروره وكبريائه .. وأمنيته فى رؤية الأمير قبل لقاء ربه .. ارتعد قلب الأمير.. كاد أن يكشف سره إلا أنه تراجع ثم عجّل بقوله :

- دواء السلطان فى حوزتى ..

صاحت الدادة فى استغراب :

- فى حوزتك .. !!

وأضافت « فيروز » :

- ولكنك لست طبيبا ؟ !

- ومع ذلك أستطيع أن أداوى السلطان .. ويشفى بمشيئة الرحمن ..

- والأمير « نور الدين » ؟

- ننقذ السلطان أولا .. ثم نبحث عن الأمير ..

اطمأن قلب الدادة وابنتها لكلام « سعدون » ورؤيته .. ثم طلب منهما أن يعجّلا بالرحيل ويبلّغا حكيم الزمان .. وأن يطلبا منه أن يعد لحفل غناء .. وعندما قرأ « سعدون » استغرابهما قال فى حزم :

- لا تضيعا الوقت .. ويجب أن ينفذ الحكيم طلباتى لإنقاذ السلطان ..

(٢١)

انطلقت الدادة وابنتها تسبقهما الفرحة ويحوطهما الأمل .. عادتا إلى القصر.. قصدتا صومعة الحكيم الذى كان يعيش لحظات قلقة .. وعندما رآهما اندفع إليهما .. وحكت الدادة حكايتها مع « سعدون » .. تبدلت ملامح الحكيم إذ غشيت السعادة وجهه .. وسعى حيث جناح السلطان ليلقى بأوامره .. ويجهز لاستقبال « سعدون » .. ويعدّ للحفل الذى اشترطه .. وعندما اعترضه الوزير.. قال فى جرأة وصرامة :

- إننى أعد لاستقبال الطبيب الذى سيداوى مولانا السلطان ..

استشاط الوزير غضبا وقال فى حدة :

- لقد فحص السلطان مشاهير الأطباء .. وحاروا فى دوائه ويئسوا من برئه وشفائه ..

لحظ الحكيم غضب الوزير .. فقال فى لين لا يخلو من الحزم :

- لا ضرر أن يفحصه ذلك الطبيب .. عسى أن يتم شفاء السلطان على يديه.. وإمّا أن يكون لك رأى آخر .. حدجه الوزير بنظرة حاقدة .. قابلها الحكيم بقوة وثبات .. ثم قال الوزير فى خبث :

- أخشى أن يضر بمولاى كثرة الفحص فتسوء حالته .

لم يهتز الحكيم لمناورات الوزير .. وعاد يقول فى اصرار :

- وإنى أرى من الحكمة أن يتم الفحص ..

كتم الوزير غيظه .. فقد هزه ثبات الحكيم وتصميمه وعناده .. وآثر اتخاذ سياسة اللين .. خشية أن يفتضح أمره .. ولا ضير أن يجارى الحكيم لذا قال :

- وليكن ما أردت ..

دهش الجميع حين أمر الحكيم بإعداد مسرحا .. ولم يجرؤ أحدٌ على سؤاله أو مجادلته .. وكم ضحك الوزير قائلا فى نفسه :

– ماذا يصنع هذا الأبله المخبول ؟ !! .. لا بد أنه أراد أن يزفّ السلطان إلى مثواه الأخير ..

حين كان الحكيم مشغولا بإعداد المسرح .. كانت « مرجانة » قد اتخذت طريقها إلى « سعدون » لتبلّغه بما قام به الحكيم تنفيذا لطلباته .. ودعوته إلى قصر السلطان .. رقص قلب « سعدون » .. طفرت من عينيه دموع الفرحة .. استغربت « مرجانة » .. وعبّر « سعدون » قائلا :

– لكم أحب مولانا السلطان الطيب .. وأرجو أن يمنّ الله علينا بشفائه ..

وأعدّ « سعدون » عدّته واصطحب فرقته وعلى رأسها صديقه « سعد » ..

وأسرع إلى قصر السلطان .. دخل من بوابة القصر .. فوجئ الحراس بالقزم المغنى الذين سمعوا عنه .. اشتد ذهولهم .. أهذا الطبيب ؟ ! .. يا للغرابة !! لقد جن الحكيم .. إنها الشيخوخة ومن أثر السنين .. وفوجئوا أيضا بالحكيم يستقبله فى احترام وتبجيل .. وكم فوجئ المدعوون من كبار رجال الدولة وحاشية السلطان .. واستغربوا مسلك الحكيم .. وضاقوا به ..

(٢٢)

دخل « سعدون » القاعة الكبيرة .. لم يلتفت إلى المدعوين .. غضبوا .. تيقنوا أن الحكيم يسخر منهم ويستهزئ بهم .. أو أنه يخرف لما يوجب الخلاص منه واستبعاده من منصبه .. غشى وجه الوزير ابتسامة ساخرة وكان تواقا إلى اللحظة الحرجة حين يفشل الطبيب فى مداواة السلطان ! .. ساعتها سيشفى غليله ويعلن عن خيبة الحكيم .. حين يطفئ ناره بعزله وابعاده .. بل وطرده من القصر شر طرده .. كاد يقهقه .. إلا أنه أجّل ذلك إلى لحظة الانتقام المرتقبة !

وكان الحكيم قد جمع الحراس وأملى عليهم تعليماته .. وأيضاً كان ذلك بين دهشتهم وتبادلهم نظرات ملؤها الحيرة ! .. كما طلب أن يشرّف السلطان الحفل .. واختار مقعده فى الصدارة .. فى مواجهة المسرح ! .. كما أرسل لخدم القصر وحشمه لحضور الحفل .. جو من الغرابة يشيع فى جنبات القاعة والقصر.. الحيرة تتراءى على كافة الوجوه .. والمثير أن الدماء جرت فى أعضاء السلطان فاسترد اليسير من عافيته ! .. ولم يفحصه الطبيب المغنى .. القزم !..

بدأت رأس الوزير فى الدوار ! ..

اتخذ « سعدون » مقعده أمام فرقته الموسيقية .. وجميعهم أطفال ! .. وبإشارة من « سعد » المايسترو .. تصاعدت أنغام الآلات .. نفس الأنغام ..! .. وذات اللحن !! .. وارتفع صوت « سعدون » يغنى .. نفس الأغنية .. إنها أغنية الشعب !!! .. اشتدت دهشة الدادة وابنتها .. أنصت السلطان إلى الأنغام كما أنصت إلى صوت المطرب القزم .. إنها أغنية الشعب !! .. وإنه .. إنه صوت الأمير ! .. الوزير يراقب السلطان .. دهش لصوت الأمير وأغنيته .. ودهش أيضا عندما رأى السلطان يحرك رأسه !! .. عجبا .. لقد سرت الدماء فى وجهه .. دبت فيه الحياة من جديد !! .. وكأن يد السحر امتدت إليه لتبعثه للحياة بعد أن أشرف على الفناء .. وبعد أن كان قاب قوسين أو أدنى لاحتلال كرسى السلطنة .. بالأمس كان يرى نفسه بعينى خياله وقد امتطى صهوة الكرسى الموعود مكان السلطان .. يحكم ويأمر وينهى .. وينعم .. ويظلم !

- ما الذى يحدث .. كأننى فى حلم مزعج .. أو كابوس ثقيل ! .. لا ريب أنه حلم سخيف سرعان ما أصحو .. وأزيح الكابوس الجاثم على صدرى والذى أراد خنقى .. لن أختنق .. ولن أموت ..

سأعيش ألف عام .. بل .. بل سأحكم ألف عام .. بل أكثر .. أكثر .. فالألف قليلة .. قليلة .

ازدادت دهشة السلطان .. فكيف يكون صوت القزم المغنى .. هو صوت الأمير !! .. وكان الحكيم قد اختفى من القاعة .. جمهور الحاضرين فى دهشتهم .. يرون ما حولهم .. لكن لا يفهمون شيئا مما يدور .. وكأن الضباب يغشى القاعة .. أو كأنهم جميعاً يعيشون أحداث حلم واحد .

انتهى القزم من أغنية الشعب .. صفّق الحاضرون .. وأطلقوا صيحات الإعجاب .. طلب السلطان « سعدون » .. أتى إليه وقلبه ينتفض .. نظر فى عينى السلطان .. الدموع تغشى عينى « سعدون » .. استغرب السلطان .. انحنى « سعدون » إنحناءة كبيرة ليلثم يد السلطان .. اندهش السلطان لتصرف القزم المغنى .. فسأله :

- ماذا وراءك أيها الفنان ؟ !

فنان !! .. لقد كان يغنى أغنية الشعب .. إذن فقد تبدل فكر والده السلطان وعرف حقيقة الأمور .. عندئذ قال « سعدون » فى ثقة :

- والآن أستطيع أن أعدك يا مولاى الحبيب بأن أعيد إليك سمو الأمير «نور الدين » ..

صاح السلطان صيحات الفرحة .. رفع كلتا يديه .. أمسك كتفى القزم .. دفعه إلى صدره فى عناق حار .. وكم كان ذهول السلطان .. وكافة الحاضرين .. وخاصة « سعد » .. لقد تبدل القزم .. وعلت الصيحات وشهقات الفرحة :

- القزم المغنى .. هو الأمير « نور الدين » !! .. يا للعجب !! ..

- لقد عاد الأمير « نور الدين » ! .. عاد الأمير « نور الدين » !! ..

وانطلقت زغاريد الدادة لأول مرة .. وعاد السلطان يعانق ابنه فى لهفة وشوق بين دموعه التى أطلق لها العنان للمرة الثانية فى عمره .. إذ كانت الأولى من أجل السلطانة الراحلة .. واستمر السلطان يبكى .. ويبكى معه « نور الدين».. هل كانت دموع اللهفة .. أم الندم .. أم دموع الفرحة .. أم كلها جميعاً .. وغمرت الفرحة القصر الكبير .. وكان الوزير قد أُسقط فى يده .. وحام حوله الحمى .. وبدا وكأن على رأسه الطير .. وجعل جسده كله ينتفض .. وأسنانه تصطك من شدة الخوف .. وكان رئيس الحرس أشد منه رعبا وفرقا .

القزم المغنى هو الأمير نور الدين... ياللعجب !!

استرد السلطان صحته .. وفوجئ الجميع بدخول شيخ يرتدى ملبسا أبيض .. وشالا أبيض .. ولحيته بيضاء .. والنور يشع من وجهه .. وعندما لمحه الأمير .. هتف فى دهشة واستغراب وفرحة :

- إنه الشيخ الطيب !! ..

تبادل الجميع نظرات الدهشة .. بينما شمل القاعة صمت وسكون ..

وقف الشيخ أمام السلطان .. وما لبث أن خلع قناعه .. فعلت الصيحات ..

- إنه حكيم الزمان .. !!

- إنه حكيم القصر !! ..

تبادل الأمير والحكيم ابتسامة .. قام الأمير ليضمه فى شوق وعرفان .. ثم التفت الأمير إلى والده السلطان وقال :

- سأحكى لك كل الحكاية يا مولاى ..

وعادت قهقهات السلطان تجلجل فى القاعة !!

حاول الوزير وذيله الهروب .. ولكن قام أفراد الحرس بالقبض عليهما .. وجرّوهما أمام السلطان كجرذين حقيرين .. عندئذ نظر

إليهما السلطان فى احتقار شديد .. فقد سقط قناعهما .. واكتشف أمرهما فى اللحظة المناسبة .. أزيح الستار .. وسقط القناع عن المخادعين .. ولم يلبث أن عزلهما وأمر بحبسهما .. وسيق المخادعين إلى السجن .. ثم التفت السلطان إلي الحكيم .. وطلّت من عينيه نظرة احترام وتوقير .. وزارت شفتيه ابتسامة رقيقة .. ثم أصدر السلطان فرماناً باختيار الحكيم وزيرا للبلاد .. وكانت مفاجأة لم يتوقعها الحكيم .. كاد أن يعتذر .. إلا أن الأمير قال له بعينيه :

- أرجوك يا صديقى الحكيم أن تقبل .. فالبلاد فى أشد الاحتياج لذوى العقل والحكمة .. وابتسم الحكيم لصديقه الأمير .. بمعنى الرضا والقبول .. !..

وقام المدعوون ليهنئوا السلطان على شفائه وعودة سمو الأمير .. وانفضّ الحفل الكبير .. العجيب ..

قضى « نور الدين » وصديقه « سعد » شطراً من الليلة فى ضيافة السلطان وأخويه الأميرين .. وحكى لهم حكايته بين شوقهم وضحكاتهم .. ثم استأذنهم ليكملا السهرة مع أمه الدادة .. وصديقته « فيروز » الحبيبة .. ثم خلا « سعدون » بحبيبه ورفيقه « سعد » .. كم تحاكيا .. وكم ضحكا !! ..

وفى الصباح استأذن « سعد » فى الرحيل .. وكان الوداع حارا بين الصديقين.. وطلب منه الأمير أن يتردد على القصر كلما اشتاق إليه .. وصاحبت فرقة الفرسان « سعداً » .. الذى أُستقبل فى قريته أروع استقبال .. وأُشتهر بلقب المايسترو ..

وهكذا تعلم السلطان درساً كبيراً فى التواضع .. وذلك بفضل تدبير الحكيم الوفى وسعى الأمير الصغير .. وتحققت أمنية الشعب بتخلى السلطان عن غروره وكبريائه وخيلائه .. وكان يطرب لسماع أصوات العصافير البلدية .. وحين يغنى الأمير أغنية الشعب .

*

تمت بحمد الله وتوفيقه

حمدى عماره